٧٨ - سورة النبأ

مكية وآياتها اربعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝٢ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝٦ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ۝١٤ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ۝١٦﴾.

يقول تعالى منكراً على المشركين في تساؤلهم عن يوم القيامة إنكاراً لوقوعها: ﴿عم يتساءلون * عن النبأ العظيم﴾ أي: عن أي شيء يتساءلون عن أمر القيامة، وهو النبأ العظيم: يعني الخبر الهائل المفظع الباهر، قال قتادة: النبأ العظيم: البعث بعد الموت، وقال مجاهد: هو القرآن، والأظهر الأول، لقوله: ﴿الذي هم فيه مختلفون﴾ يعني الناس فيه مؤمن به وكافر، ثم قال تعالى متوعداً لمنكري القيامة: ﴿كلا سيعلمون * ثم كلا سيعلمون﴾ وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، ثم شرع تبارك وتعالى يبين قدرته العظيمة على خلق الأشياء الغريبة والأمور العجيبة، الدالة على قدرته على ما يشاء من أمر المعاد وغيره، فقال: ﴿ألم نجعل الأرض مهاداً﴾ أي ممهدة للخلائق ذلولاً لهم، قارة ساكنة ثابتة ﴿والجبال أوتاداً﴾ أي جعلها لها أوتاداً، أرساها بها وثبتها وقررها، حتى سكنت ولم تضطرب بمن عليها، ثم قال تعالى: ﴿وخلقناكم أزواجاً﴾ يعني ذكراً وأنثى، يتمتع كل منهما بالآخر، ويحصل التناسل بذلك كقوله: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾، وقوله تعالى: ﴿وجعلنا نومكم سباتاً﴾ أي قطعاً للحركة لتحصل الراحة من كثرة الترداد، والسعي في المعايش في عرض النهار، ﴿وجعلنا الليل لباساً﴾ أي يغشى الناس بظلامه وسواده، كما قال: ﴿والليل إذا يغشاها﴾، وقال قتادة ﴿وجعلنا الليل لباساً﴾ أي سكناً، وقوله تعالى: ﴿وجعلنا النهار معاشاً﴾ أي جعلناه مشرقاً نيراً مضيئاً ليتمكن الناس من التصرف فيه والذهاب والمجيء للمعاش والتكسب والتجارات وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وبنينا فوقكم سبعاً شداداً﴾ يعني السماوات السبع في اتساعها وارتفاعها، وإحكامها وإتقانها وتزيينها بالكواكب الثوابت والسيارات، ولهذا قال تعالى: ﴿وجعلنا سراجاً وهاجاً﴾ يعني الشمس المنيرة على جميع العالم التي يتوهج ضوؤها لأهل الأرض كلهم، وقوله تعالى: ﴿وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً﴾ قال ابن عباس: المعصرات: الرياح، تستدر المطر من السحاب، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: من المعصرات أي من السحاب[1]، وقال الفراء: هي السحاب التي تتحلب بالمطر ولم تمطر بعد، كما يقال: امرأة معصر إذا دنا حيضها ولم تحض، وعن الحسن وقتادة: ﴿من المعصرات﴾ يعني السماوات. وهذا قول غريب، والأظهر أن المراد بالمعصرات السحاب، كما قال تعالى: ﴿الله الذي يرسل الرياح فتثير

(١) وهو قول عكرمة والضحاك والحسن والربيع بن أنس والثوري، واختاره ابن جرير وهو الأظهر كما قال ابن كثير.

سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله﴾ أي من بينه، وقوله جلّ وعلا: ﴿ماء ثجاجاً﴾ قال مجاهد: ﴿ثجاجاً﴾: منصباً، وقال الثوري: متتابعاً، وقال ابن زيد: كثيراً، قال ابن جرير: ولا يعرف في كلام العرب في صفة الكثرة الثج، وإنما الثج الصب المتتابع، ومنه قول النبي ﷺ: «أفضل الحج العج والثج» يعني صب دماء البدن. قلت: وفي حديث المستحاضة: «إنما أثج ثجّاً» وهذا فيه دلالة على استعمال الثج في الصب المتتابع الكثير، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿لنخرج به حباً ونباتاً * وجنات ألفافاً﴾ أي لنخرج بهذا الماء الكثير الطيب النافع المبارك ﴿حباً﴾ يدخر للأناسي والأنعام، ﴿ونباتاً﴾ أي خضراً يؤكل رطباً، ﴿وجنات﴾ أي بساتين وحدائق من ثمرات متنوعة وألوان مختلفة وطعوم وروائح متفاوتة، وإن كان ذلك في بقعة واحدة من الأرض مجتمعاً، ولهذا قال: ﴿وجنات ألفافاً﴾ قال ابن عباس وغيره: ألفافاً مجتمعة، وهذه كقوله تعالى: ﴿وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾.

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن يوم الفصل، وهو (يوم القيامة) أنه مؤقت بأجل معدود، لا يزاد عليه ولا ينقص منه، ولا يعلم وقته على التعيين إلا الله عزّ وجلّ، كما قال تعالى: ﴿وما نؤخره إلا لأجل معدود﴾ أنه ﴿يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً﴾ قال مجاهد: زمراً زمراً. قال ابن جرير: يعني تأتي كل أمة مع رسولها، كقوله تعالى: ﴿يوم ندعو كل أناس بإمامهم﴾ قال البخاري: ﴿يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً﴾ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين النفختين أربعون» قالوا: أربعون يوماً؟ قال: «أبيت»، قالوا: أربعون شهراً؟ قال: «أبيت»، قالوا: أربعون سنة؟ قال: «أبيت»، قال: «ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل ليس من الإنسان شيء إلا بلي إلا عظماً واحداً وهو عجب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة»[1]. ﴿وفتحت السماء فكانت أبواباً﴾ أي طرقاً ومسالك لنزول الملائكة، ﴿وسيرت الجبال فكانت سراباً﴾ كقوله تعالى: ﴿وتكون الجبال كالعهن المنفوش﴾، وقال ههنا ﴿فكانت سراباً﴾ أي يخيل إلى الناظر أنها شيء وليست بشيء، وبعد هذا تذهب بالكلية فلا عين ولا أثر، كما قال تعالى: ﴿ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً * فيذرها قاعاً صفصفاً * لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً﴾، وقال تعالى: ﴿ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة﴾، وقوله تعالى: ﴿إن جهنم كانت مرصاداً﴾ أي مرصدة معدة ﴿للطاغين﴾ وهم المردة العصاة المخالفون للرسل، ﴿مآباً﴾ أي مرجعاً ومنقلباً ومصيراً ونزلاً، وقال الحسن وقتادة: لا يدخل أحد الجنة حتى يجتاز النار، فإن كان معه جواز نجا وإلا احتبس، وقوله تعالى: ﴿لابثين فيها أحقاباً﴾ أي ماكثين فيها أحقاباً وهي جمع حقب وهو المدة من الزمان، وقد اختلفوا في مقداره، فقال ابن جرير: قال علي بن أبي طالب لهلال الهجري: ما تجدون الحقب في كتاب الله المنزل؟ قال: نجده ثمانين سنة، كل سنة اثنا عشر شهراً، كل شهر ثلاثون يوماً، كل يوم ألف سنة، وعن الحسن والسدي: سبعون سنة. وعن عبد الله بن عمرو: الحقب أربعون سنة، كل يوم منها كألف سنة مما تعدون[2]، وقال بشير بن كعب: ذكر لي أن الحقب الواحد ثلثمائة سنة، اثنا عشر شهراً، كل سنة ثلثمائة وستون يوماً، كل يوم منها كألف سنة. وقال السدي:

(١) أخرجه البخاري.
(٢) رواهما ابن أبي حاتم.

﴿لابثين فيها أحقاباً﴾ سبعمائة حقب، كل حقب سبعون سنة، كل سنة ثلثمائة وستون يوماً، كل يوم كألف سنة مما تعدون، وقال خالد بن معدان هذه الآية: وقوله تعالى: ﴿إلا ما شاء ربك﴾ في أهل التوحيد[1]، قال ابن جرير: والصحيح أنها لا انقضاء لها، كما روي عن سالم: سمعت الحسن يسأل عن قوله تعالى: ﴿لابثين فيها أحقاباً﴾ قال أما الأحقاب فليس لها عدة إلا الخلود في النار، ولكن ذكروا أن الحقب سبعون سنة، كل يوم منها كألف سنة مما تعدون، وقال قتادة: قال الله تعالى: ﴿لابثين فيها أحقاباً﴾ وهو ما لا انقطاع له وكلما مضى حقب جاء حقب بعده. وقال الربيع بن أنس: ﴿لابثين فيها أحقاباً﴾ لا يعلم عدة هذه الأحقاب إلا الله عزّ وجلّ، وذكر لنا أن الحقب الواحد ثمانون سنة، والسنة ثلثمائة وستون يوماً، كل يوم كألف سنة مما تعدون[2].

وقوله تعالى: ﴿لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً﴾ أي لا يجدون في جهنم برداً لقلوبهم، ولا شراباً طيباً يتغذون به، ولهذا قال تعالى: ﴿إلا حميماً وغساقاً﴾، وقال أبو العالية: استثنى من البرد الحميم، ومن الشراب الغساق، قال الربيع بن أنس: فأما الحميم فهو الحار الذي قد انتهى حرّه وحموُّه، والغساق هو ما اجتمع من صديد أهل النار وعرقهم ودموعهم وجروحهم، فهو بارد لا يستطاع من برده ولا يواجه من نتنه، وقوله تعالى: ﴿جزاءاً وفاقاً﴾ أي هذا الذي صاروا إليه من هذه العقوبة، وفق أعمالهم الفاسدة التي كانوا يعملونها في الدنيا، ثم قال تعالى: ﴿إنهم كانوا لا يرجون حساباً﴾ أي لم يكونوا يعتقدون أن ثم داراً يجازون فيها ويحاسبون، ﴿وكذبوا بآياتنا كذاباً﴾ أي وكانوا يكذبون بحجج الله ودلائله على خلقه التي أنزلها على رسُلِهِ صلوات الله وسلامه عليهم فيقابلونها بالتكذيب والمعاندة، وقوله ﴿كذاباً﴾ أي تكذيباً، وهو مصدر من غير الفعل، وقوله تعالى: ﴿وكل شيء أحصيناه كتاباً﴾ أي وقد علمنا أعمال العباد وكتبناها عليهم، وسنجزيهم على ذلك إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وقوله تعالى: ﴿فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً﴾ أي يقال لأهل النار ذوقوا ما أنتم فيه فلن نزيدكم إلاّ عذاباً من جنسه وآخر من شكله أزواج قال قتادة: لم ينزل على أهل النار آية أشد من هذه الآية ﴿فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً﴾ فهم في مزيد من العذاب أبداً.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن السعداء، وما أعد الله تعالى لهم من الكرامة والنعيم المقيم، فقال تعالى: ﴿إن للمتقين مفازاً﴾ قال ابن عباس متنزهاً، وقال مجاهد: فازوا فنجوا من النار، والأظهر ههنا قول ابن عباس لأنه قال بعده: ﴿حدائق﴾ والحدائق البساتين من النخيل وغيرها، ﴿وأعناباً * وكواعب أتراباً﴾ أي وحوراً كواعب، قال ابن عباس ومجاهد «كواعب» أي نواهد، يعنون أن ثديهن نواهد لم يتدلين، لأنهن أبكار «عرب أتراب» أي في سن واحد، كما تقدم بيانه في سورة الواقعة، روى ابن أبي حاتم، عن ابن أبي القاسم الدمشقي، عن أبي أمامة، عن النبي ﷺ أنه قال: «إن قمص أهل الجنة لتبدو من رضوان الله، وإن السحابة لتمر بهم فتناديهم: يا أهل الجنة ماذا تريدون أن أمطركم؟ حتى إنها لتمطرهم الكواعب الأتراب»[3]. وقوله تعالى: ﴿وكأساً دهاقاً﴾ قال ابن عباس: مملوءة متتابعة، وقال عكرمة: صافية، وقال مجاهد والحسن ﴿دهاقاً﴾ الملأى المترعة، وقال سعيد بن جبير: هي المتتابعة، وقوله تعالى: ﴿لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً﴾ كقوله: ﴿لا لغو فيه ولا تأثيم﴾ أي ليس فيها كلام لاغ عار عن الفائدة ولا إثم كذب، بل هي دار السلام وكل ما فيها سالم من النقص، وقوله: ﴿جزاءً من ربك عطاء حساباً﴾ أي هذا الذي ذكرناه، جازاهم

(١) أخرجه ابن جرير.
(٢) أخرجه ابن جرير أيضاً.
(٣) رواه ابن أبي حاتم.

الله به بفضله ومنه وإحسانه ﴿عطاء حساباً﴾ أي كافياً وافياً سالماً كثيراً، ومنه حسبي الله، أي الله كافيّ.

﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾﴾.

يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وأنه رب السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما، وأنه الرحمٰن الذي شملت رحمته كل شيء، وقوله تعالى: ﴿لا يملكون منه خطاباً﴾ أي لا يقدر أحد على ابتداء مخاطبته إلا بإذنه، كقوله تعالى: ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾، وكقوله تعالى: ﴿يوم يأتِ لا تكلم نفس إلا بإذنه﴾، وقوله تعالى: ﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون﴾ اختلف المفسرون في المراد بالروح ههنا ما هو؟ على أقوال: أحدها: ما روي عن ابن عباس أنهم أرواح بني آدم. الثاني: هم بنو آدم، قاله الحسن وقتادة. الثالث: أنهم خلق من خلق الله على صور بني آدم وليسوا بملائكة ولا ببشر قاله ابن عباس ومجاهد. الرابع: هو جبريل، قاله الشعبي وسعيد بن جبير والضحّاك. الخامس أنه ملك من الملائكة بقدر جميع المخلوقات، قال ابن عباس: هو ملك عظيم من أعظم الملائكة خلقاً. والأشبه عندي - والله أعلم - أنهم بنو آدم[1]، وقوله تعالى: ﴿إلا من أذن له الرحمٰن﴾ كقوله: ﴿يوم يأتِ لا تكلم نفس إلا بإذنه﴾، وكما ثبت في الصحيح: «ولا يتكلم يومئذٍ إلا الرسل»، وقوله تعالى: ﴿وقال صواباً﴾ أي حقاً، ومن الحق «لا إله إلا الله»، كما قاله عكرمة: وقوله تعالى: ﴿ذلك اليوم الحق﴾ أي الكائن لا محالة، ﴿فمن شاء اتخذ إلى ربه مآباً﴾ أي مرجعاً وطريقاً يهتدي إليه، ومنهجاً يمر به عليه، وقوله تعالى: ﴿إنا أنذرناكم عذاباً قريباً﴾ يعني يوم القيامة لتأكد وقوعه صار قريباً، لأن كل ما هو آت قريب، ﴿يوم ينظر المرء ما قدمت يداه﴾ أي يعرض عليه جميع أعماله خيرها وشرها قديمها وحديثها كقوله تعالى: ﴿ووجدوا ما عملوا حاضراً﴾، وكقوله تعالى: ﴿ينبأ الإنسان يومئذٍ بما قدم وأخر﴾، ﴿ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً﴾ أي يود الكافر يومئذٍ أنه كان في الدار الدنيا تراباً، ولم يكن خلق ولا خرج إلى الوجود، وذلك حين عاين عذاب الله، ونظر إلى أعماله الفاسدة قد سطرت عليه بأيدي الملائكة السفرة الكرام البررة، وقيل: إنما يود ذلك حين يحكم الله بين الحيوانات التي كانت في الدنيا، فيفصل بينها بحكمه العدل الذي لا يجور، حتى إنه ليقتص للشاة الجماء من القرناء، فإذا فرغ من الحكم بينها قال لها: كوني تراباً فتصير تراباً فعند ذلك يقول الكافر ﴿يا ليتني كنت تراباً﴾ أي كنت حيواناً فأرجع إلى التراب، وقد ورد معنى هذا في حديث الصور المشهور، وورد فيه آثار عن أبي هريرة وعبد الله بن عمرو وغيرهما.

[آخر تفسير سورة النبأ، ولله الحمد والمنة وبه التوفيق والعصمة]

• • •

(١) الأظهر أن المراد بالروح هنا (جبريل) عليه السلام كما قال سعيد بن جبير والضحاك ويؤيده قوله تعالى: ﴿نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين﴾، فالروح هو جبريل.

٧٩ ـ سورة النازعات

مكية وآياتها ست وأربعون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝١ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ۝٢ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ۝٣ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ۝٤ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ۝٥ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ۝٩ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ۝١٠ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ۝١١ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝١٢ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ۝١٤﴾.

﴿والنازعات غرقاً﴾: الملائكة حين تنزع أرواح بني آدم، فمنهم من تأخذ روحه بعسر فتغرق في نزعها، ومنهم من تأخذ روحه بسهولة وكأنما حلته من نشاط، وهو قوله: ﴿والناشطات نشطاً﴾ قاله ابن عباس وغيره، وعنه ﴿والنازعات﴾: هي أنفس الكفار تنزع ثم تنشط ثم تغرق في النار[1]، وقال مجاهد ﴿والنازعات غرقاً﴾: الموت. وقال الحسن وقتادة ﴿والنازعات غرقاً * والناشطات نشطاً﴾: هي النجوم، والصحيح الأول وعليه الأكثرون. وأما قوله تعالى: ﴿والسابحات سبحاً﴾ فقال ابن مسعود: هي الملائكة، وقال قتادة: هي النجوم، وقال عطاء: هي السفن، وقوله تعالى: ﴿فالسابقات سبقاً﴾: يعني الملائكة، قال الحسن: سبقت إلى الإيمان والتصديق، وقال قتادة: هي النجوم، وقال عطاء: هي الخيل في سبيل الله، وقوله تعالى: ﴿فالمدبرات أمراً﴾ قال علي ومجاهد: هي الملائكة تدبر الأمر من السماء إلى الأرض، يعني بأمر ربها عزّ وجلّ، وقوله تعالى: ﴿يوم ترجف الراجفة * تتبعها الرادفة﴾ قال ابن عباس: هما النفختان الأولى والثانية[2]، قال مجاهد: أما الأولى ﴿يوم ترجف الراجفة﴾ فكقوله جلّت عظمته: ﴿يوم ترجف الأرض والجبال﴾، وأما الثانية وهي الرادفة، كقوله: ﴿وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة﴾، وفي الحديث قال رسول الله ﷺ: «جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه» فقال رجل: يا رسول الله أرأيت إن جعلت صلاتي كلها عليك؟ قال: «إذاً يكفيك الله ما أهمك من دنياك وآخرتك»[3] رواه أحمد والترمذي، ولفظ الترمذي: كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال: «يا أيها الناس اذكروا الله جاءت الراجفة تتبعها الرادفة جاء الموت بما فيه». وقوله تعالى: ﴿قلوب يومئذٍ واجفة﴾ قال ابن عباس: يعني خائفة ﴿أبصارها خاشعة﴾ أي أبصار أصحابها وإنما أضيفت إليها للملابسة، أي ذليلة حقيرة مما عاينت من الأهوال.

وقوله تعالى: ﴿يقولون أئنا لمردودون في الحافرة﴾ يعني مشركي قريش، يستبعدون وقوع البعث بعد المصير إلى ﴿الحافرة﴾ وهي القبور[4] وبعد تمزق أجسادهم وتفتت عظامهم ونخورها، ولهذا قالوا: ﴿أئذا كنا عظاماً نخرة﴾ وقرىء: ناخرة أي بالية، قال ابن عباس: وهو العظم إذا بلي ودخلت الريح فيه، ﴿قالوا تلك إذاً كرة خاسرة﴾. وعن ابن عباس وقتادة: الحافرة الحياة بعد الموت، وقال ابن زيد: الحافرة النار، وما أكثر أسماءها! هي النار والجحيم وسقر وجهنم والهاوية والحافرة ولظى والحطمة، وأما قولهم: ﴿تلك إذاً كرة خاسرة﴾ فقال محمد بن كعب، قالت قريش: لئن أحيانا الله بعد أن نموت لنخسرن، قال الله تعالى: ﴿فإنما

---

(١) رواه ابن أبي حاتم.
(٢) وهو قول مجاهد والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم.
(٣) أخرجه أحمد.
(٤) قاله مجاهد.

هي زجرة واحدة * فإذا هم بالساهرة﴾ أي فإنما هو أمر من الله لا مثنوية فيه ولا تأكيد فإذا الناس قيام ينظرون، وهو أن يأمر تعالى إسرافيل فينفخ في الصور نفخة البعث، فإذا الأولون والآخرون قيام بين يدي الرب عزّ وجلّ ينظرون، كما قال تعالى: ﴿يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً﴾ وقال تعالى: ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾ وقال تعالى: ﴿وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب﴾ قال مجاهد: ﴿فإنما هي زجرة واحدة﴾ صيحة واحدة، وأشد ما يكون الرب عزّ وجلّ غضباً على خلقه يوم يبعثهم، قال الحسن البصري: زجرة من الغضب، وقوله تعالى: ﴿فإذا هم بالساهرة﴾ قال ابن عباس: الساهرة الأرض كلها، وقال عكرمة والحسن: الساهرة وجه الأرض، قال مجاهد: كانوا بأسفلها فأخرجوا إلى أعلاها، عن سهل بن سعد الساعدي ﴿فإذا هم بالساهرة﴾ قال: أرض بيضاء عفراء خالية كالخبزة النقي[1]، وقال الربيع بن أنس: ﴿فإذا هم بالساهرة﴾ يقول الله عزّ وجلّ: ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار﴾، ويقول تعالى: ﴿ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً * فيذرها قاعاً صفصفاً * لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً﴾، ويقول تعالى: ﴿ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة﴾، وهي أرض لم يعمل عليها خطيئة ولم يهرق عليها دم.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾﴾.

يخبر تعالى رسوله محمداً ﷺ عن عبده ورسوله موسى عليه السلام، أنه ابتعثه إلى فرعون وأيده الله بالمعجزات، ومع هذا استمر على كفره وطغيانه حتى أخذه الله أخذ عزيز مقتدر، وكذلك عاقبة من خالفك يا محمد وكذب بما جئت به، ولهذا قال في آخر القصة: ﴿إن في ذلك لعبرة لمن يخشى﴾، فقوله تعالى: ﴿هل أتاك حديث موسى﴾ أي هل سمعت بخبره ﴿إذ ناداه ربه﴾ أي كلمه نداءً ﴿بالواد المقدس﴾ أي المطهر، ﴿طوى﴾ وهو اسم الوادي على الصحيح، فقال له: ﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى﴾ أي تجبر وتمرد وعتا، ﴿فقل هل لك إلى أن تزكى﴾ أي قل له هل لك أن تجيب إلى طريقة ومسلك تزكى به أي تسلم وتطيع، ﴿وأهديك إلى ربك﴾ أي أدلك إلى عبادة ربك ﴿فتخشى﴾ أي فيصير قلبك خاضعاً له مطيعاً خاشعاً، بعد ما كان قاسياً خبيثاً بعيداً من الخير، ﴿فأراه الآية الكبرى﴾ يعني فأظهر له موسى مع هذه الدعوة الحق حجة قوية، ودليلاً واضحاً على صدق ما جاءه به من عند الله، ﴿فكذب وعصى﴾ أي فكذب بالحق، وخالف ما أمره به من الطاعة، ﴿ثم أدبر يسعى﴾ أي في مقابلة الحق بالباطل وهو جمعه السحرة، ليقابلوا ما جاء به موسى عليه السلام من المعجزات الباهرات ﴿فحشر فنادى﴾ أي في قومه، ﴿فقال أنا ربكم الأعلى﴾ قال ابن عباس ومجاهد: وهذه الكلمة قالها فرعون بعد قوله: ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾ بأربعين سنة، قال الله تعالى: ﴿فأخذه الله نكال الآخرة والأولى﴾ أي انتقم الله منه انتقاماً جعله به عبرة ونكالاً لأمثاله من المتمردين في الدنيا، ﴿ويوم القيامة بئس الرفد المرفود﴾، كما قال تعالى: ﴿وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون﴾، وهذا هو الصحيح في معنى الآية أن المراد بقوله: ﴿نكال الآخرة والأولى﴾ أي الدنيا والآخرة، وقيل: المراد بذلك كلمتاه الأولى والثانية، وقيل: كفره وعصيانه، والصحيح الأول، وقوله: ﴿إن في ذلك لعبرة لمن يخشى﴾ أي لمن يتعظ وينزجر.

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾.

(١) رواه ابن أبي حاتم.

يقول تعالى محتجاً على منكري البعث في إعادة الخلق بعد بدئه ﴿أأنتم﴾ أيها الناس ﴿أشد خلقاً أم السماء﴾ يعني بل السماء أشد خلقاً منكم كما قال تعالى: ﴿لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس﴾، وقوله تعالى: ﴿بناها﴾ فسره بقوله: ﴿رفع سمكها فسواها﴾ أي جعلها عالية البناء، بعيدة الفناء، مستوية الأرجاء، مكللة بالكواكب في الليلة الظلماء، وقوله تعالى: ﴿وأغطش ليلها وأخرج ضحاها﴾ أي جعل ليلها مظلماً أسود حالكاً، ونهارها مضيئاً مشرقاً واضحاً، قال ابن عباس: أغطش ليلها أظلمه، ﴿وأخرج ضحاها﴾ أي أنار نهارها، وقوله تعالى: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾ فسره بقوله تعالى: ﴿أخرج منها ماءها ومرعاها﴾ وقد تقدم في سورة «حم السجدة» أن الأرض خلقت قبل خلق السماء، ولكن إنما دحيت بعد خلق السماء بمعنى أنه أخرج ما كان فيها بالقوة إلى الفعل، عن ابن عباس ﴿دحاها﴾ ودحيها أن أخرج منها الماء والمرعى وشقق فيها الأنهار، وجعل فيها الجبال والرمال والسبل والآكام فذلك قوله: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾، وقد تقدم تقرير ذلك هنالك، وقوله تعالى: ﴿والجبال أرساها﴾ أي قررها وأثبتها في أماكنها، وهو الحكيم العليم، الرؤوف بخلقه الرحيم. وقوله تعالى: ﴿متاعاً لكم ولأنعامكم﴾ أي دحا الأرض فأبع عيونها، وأظهر مكنونها، وأجرى أنهارها، وأنبت زروعها وأشجارها وثبت جبالها لتستقر بأهلها ويقر قرارها، كل ذلك متاعاً لخلقه ولما يحتاجون إليه من الأنعام، التي يأكلونها ويركبونها مدة احتياجهم إليها في هذه الدار، إلى أن ينتهي الأمد وينقضي الأجل:

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿فإذا جاءت الطامة الكبرى﴾ وهو يوم القيامة، قاله ابن عباس؛ سميت بذلك لأنها تطم على كل أمر هائل مفظع، كما قال تعالى: ﴿والساعة أدهى وأمر﴾، ﴿يوم يتذكر الإنسان ما سعى﴾ أي حينئذٍ يتذكر ابن آدم جميع عمله، خيره وشره كما قال تعالى: ﴿يومئذٍ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى﴾، ﴿وبرزت الجحيم لمن يرى﴾ أي أظهرت للناظرين فرآها الناس عياناً، ﴿فأما من طغى﴾ أي تمرد وعتا، ﴿وآثر الحياة الدنيا﴾ أي قدمها على أمر دينه وأخراه، ﴿فإن الجحيم هي المأوى﴾، أي فإن مصيره إلى الجحيم وإن مطعمه من الزقوم ومشربه من الحميم، ﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى﴾ أي خاف القيام بين يدي الله عز وجل، وخاف حكم الله فيه، ونهى نفسه عن هواها، وردها إلى طاعة مولاها، ﴿فإن الجنة هي المأوى﴾ أي منقلبه ومصيره إلى الجنة الفيحاء، ثم قال تعالى: ﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها * فيم أنت من ذكراها * إلى ربك منتهاها﴾ أي ليس علمها إليك ولا إلى أحد من الخلق، بل مردها ومرجعها إلى الله عزّ وجلّ، فهو الذي يعلم وقتها على التعيين ﴿قل إنما علمها عند الله﴾، وقال ههنا: ﴿إلى ربك منتهاها﴾، ولهذا لما سأل جبريل رسول الله ﷺ عن وقت الساعة؟ قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»، وقوله تعالى: ﴿إنما أنت منذر من يخشاها﴾ أي إنما بعثتك لتنذر الناس، وتحذرهم من بأس الله وعذابه، فمن خشي الله وخاف مقامه ووعيده اتبعك فأفلح وأنجح، والخيبة والخسار على من كذّبك وخالفك، وقوله تعالى: ﴿كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها﴾ أي إذا قاموا من قبورهم إلى المحشر يستقصرون مدة الحياة الدنيا، حتى كأنها عندهم كانت عشية من يوم أو ضحى من يوم، قال ابن عباس: أما عشية فما بين الظهر إلى غروب الشمس، ﴿أو ضحاها﴾ ما بين طلوع الشمس إلى نصف النهار، وقال قتادة: وقت الدنيا في أعين القوم حين عاينوا الآخرة.

[آخر تفسير سورة النازعات، ولله الحمد والمنة]

٨٠ ـ سورة عبس

مكية وآياتها ثنتان وأربعون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ۝١٦﴾.

ذكر غير واحد من المفسرين أن رسول الله ﷺ كان يوماً يخاطب بعض عظماء قريش، وقد طمع في إسلامه، فبينما هو يخاطبه ويناجيه إذ أقبل ابن أم مكتوم، وكان ممن أسلم قديماً، فجعل يسأل رسول الله ﷺ عن شيء ويلح عليه، وود النبي ﷺ أن لو كف ساعته تلك، ليتمكن من مخاطبة ذلك الرجل طمعاً ورغبة في هدايته وعبس في وجه ابن أم مكتوم وأعرض عنه، وأقبل على الآخر، فأنزل الله تعالى، ﴿عبس وتولى * أن جاءه الأعمى * وما يدريك لعله يزكى﴾ أي يحصل له زكاة وطهارة في نفسه، ﴿أو يذكر فتنفعه الذكرى﴾ أي يحصل له اتعاظ وازدجار عن المحارم. ﴿أما من استغنى * فأنت له تصدى﴾ أي أما الغني فأنت تعرّض له لعله يهتدي ﴿وما عليك ألا يزكى﴾ أي ما أنت بمطالب به إذا لم يزك نفسه. ﴿وأما من جاءك يسعى * وهو يخشى﴾ أي يقصدك ويؤمك ليهتدي بما تقول له، ﴿فأنت عنه تلهى﴾ أي تتشاغل. ومن ههنا أمر الله تعالى رسول الله ﷺ أن لا يخص بالإنذار أحداً، بل يساوي فيه بين الشريف والضعيف، والفقير والغني، والسادة والعبيد، والرجال والنساء، والصغار والكبار، ثم الله تعالى يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة، روى الحافظ أبو يعلى عن أنس رضي الله عنه في قوله: ﴿عبس وتولى﴾ قال: جاء ابن أم مكتوم إلى النبي ﷺ، وهو يكلم (أبيّ بن خلف) فأعرض عنه، فأنزل الله عز وجل: ﴿عبس وتولى * أن جاءه الأعمى﴾ فكان النبي ﷺ بعد ذلك يكرمه[1]، وعن عائشة قالت: أنزلت ﴿عبس وتولى﴾ في ابن أم مكتوم الأعمى، أتى إلى رسول الله ﷺ، فجعل يقول أرشدني. قالت: وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين قالت: فجعل النبي ﷺ يعرض عنه، ويقبل على الآخر، ويقول: «أترى بما أقول بأساً؟» فيقول: لا، ففي هذا أنزلت: ﴿عبس وتولى﴾[2]، وهكذا ذكر غير واحد من السلف والخلف: أنها نزلت في ابن أم مكتوم، والمشهور أن اسمه عبد الله، وقوله تعالى: ﴿كلا إنها تذكرة﴾ أي هذه الوصية بالمساواة بين الناس، في إبلاغ العلم بين شريفهم ووضيعهم، وقال قتادة: ﴿كلا إنها تذكرة﴾ يعني القرآن ﴿فمن شاء ذكره﴾ أي فمن شاء ذكر الله تعالى في جميع أموره، ويحتمل عود الضمير إلى الوحي لدلالة الكلام عليه، وقوله تعالى: ﴿في صحف مكرمة * مرفوعة مطهرة﴾ أي هذه السورة أو العظة ﴿في صحف مكرمة﴾ أي معظمة موقرة، ﴿مرفوعة﴾ أي عالية القدرة، ﴿مطهرة﴾ أي من الدنس والزيادة والنقص، وقوله تعالى: ﴿بأيدي سفرة﴾ قال ابن عباس ومجاهد: هي الملائكة، وقال وهب بن منبه: هم أصحاب

---

(١) أخرجه الحافظ أبو يعلى.

(٢) أخرجه ابن جرير وأبو يعلى.

محمد ﷺ، وقال قتادة: هم القراء، وقال ابن جرير: والصحيح أن السفرة الملائكة، والسفرة يعني بين الله تعالى وبين خلقه، ومنه السفير الذي يسعى بين الناس في الصلح والخير، كما قال الشاعر:

وما أدع السفارة بين قومي ... وما أمشي بغش إن مشيت

وقال البخاري: سفرة: الملائكة، سفرتُ أصلحت بينهم، وجُعلت الملائكة إذا نزلت بوحي الله تعالى وتأديته كالسفير الذي يصلح بين القوم، وقوله تعالى: ﴿كرام برزة﴾ أي خَلْقهم كريم، وأخلاقهم بارة طاهرة، وفي الصحيح: «الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرؤه وهو عليه شاق له أجران»[1].

﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾.

يقول تعالى ذاماً لمن أنكر البعث والنشور من بني آدم: ﴿قتل الإنسان ما أكفره﴾، قال ابن عباس: لعن الإنسان، وهذا الجنس الإنسان المكذب لكثرة تكذيبه ﴿ما أكفره﴾ أي ما أشد كفره، وقال ابن جرير: ويحتمل أن يكون المراد أي شيء جعله كافراً أي ما حمله على التكذيب بالمعاد؟ وقال قتادة: ﴿ما أكفره﴾ ما العنه، ثم بين تعالى له كيف خلقه من الشيء الحقير، وأنه قادر على إعادته كما بدأه فقال تعالى: ﴿من أي شيء خلقه * من نطفة خلقه فقدره﴾ أي قدّر أجله ورزقه وعمله وشقي أو سعيد ﴿ثم السبيل يسره﴾ قال ابن عباس: ثم يسر عليه خروجه من بطن أمه[2]، وقال مجاهد: هذه كقوله تعالى: ﴿إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً﴾ أي بيناه له وأوضحناه وسهلنا عليه علمه، وهذا هو الأرجح والله أعلم، وقوله تعالى: ﴿ثم أماته فأقبره﴾ أي أنه بعد خلقه له ﴿أماته فأقبره﴾ أي جعله ذا قبر، والعرب تقول قبرت الرجل إذا ولي ذلك منه وأقبره الله، وطردت عني فلاناً وأطرده الله، أي جعله طريداً، وقوله تعالى: ﴿ثم إذا شاء أنشره﴾ أي بعثه بعد موته، ومنه يقال البعث والنشور، عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «يأكل التراب كل شيء من الإنسان إلا عجب ذنبه»، قيل: وما هو يا رسول الله؟ قال: «مثل حبة خردل منه تنشأون»[3] وهذا الحديث ثابت في الصحيحين بدون هذه الزيادة، ولفظه: «كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب منه خلق وفيه يركب»[4]، وقوله تعالى: ﴿كلا لما يقض ما أمره﴾ قال ابن جرير: يقول جل ثناؤه كلا ليس الأمر كما يقول هذا الإنسان الكافر من أنه قد أدى حق الله عليه في نفسه وماله، ﴿لما يقض ما أمره﴾ يقول: لم يؤد ما فرض عليه من الفرائض لربه عزّ وجلّ، عن مجاهد قال: لا يقضي أحد أبداً كل ما افترض عليه.

وقوله تعالى: ﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه﴾ فيه امتنان، وفيه استدلال بإحياء النبات من الأرض الهامدة على إحياء الأجسام بعدما كانت عظاماً بالية وتراباً متمزقاً، ﴿أنا صببنا الماء صباً﴾ أي أنزلناه من السماء على الأرض، ﴿ثم شققنا الأرض شقاً﴾ أي أسكناه فيها فيدخل في تخومها، فتنبت وارتفع وظهر على وجه الأرض، ﴿فأنبتنا فيها حباً * وعنباً وقضباً﴾، فالحب كل ما يذكر من الحبوب، والعنب معروف، والقضب هو الفصفصة التي تأكلها الدواب رطبة، ويقال لها القتّ أيضاً، قال ذلك ابن عباس وقتادة، وقال الحسن البصري: القضب العلف، ﴿وزيتوناً﴾ وهو معروف، وهو أدم وعصيره أدم، ويستصبح به ويدهن به،

(١) أخرجه الجماعة عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً.
(٢) وهو قول عكرمة والضحاك وقتادة والسدي واختاره ابن جرير.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم.
(٤) أخرجاه في الصحيحين عن أبي هريرة.

﴿ونخلاً﴾ يؤكل بلحاً وبسراً، ورطباً وتمراً، ونيئاً ومطبوخاً، ويعتصر منه رب وخل. ﴿وحدائق غلباً﴾ أي بساتين، قال الحسن وقتادة: غلباً نخل غلاظ كرام، وقال ابن عباس ومجاهد: كل ما التفّ واجتمع، وقال ابن عباس أيضاً ﴿غلباً﴾ الشجر الذي يستظل به، وقال عكرمة: ﴿غلباً﴾ أي غلاظ الأوساط، وقوله تعالى: ﴿وفاكهة وأباً﴾ أما الفاكهة فكل ما يتفكه به من الثمار، قال ابن عباس: الفاكهة كل ما أكل رطباً، والأب ما أنبت الأرض مما تأكله الدواب ولا يأكله الناس، وفي رواية عنه: هو الحشيش للبهائم، وقال مجاهد: الأب الكلأ، وعن مجاهد والحسن: الأب للبهائم كالفاكهة لبني آدم، وعن عطاء كل شيء نبت على وجه الأرض فهو أب، وقال الضحاك: كل شيء أنبتته الأرض سوى الفاكهة فهو الأب. وقال العوفي، عن ابن عباس: الأب: الكلأ والمرعى. روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ ﴿عبس وتولى﴾ فلما أتى على هذه الآية: ﴿وفاكهة وأباً﴾ قال: قد عرفنا الفاكهة فما الأب؟ فقال لعمرك يا ابن الخطاب إن هذا لهو التكلف[1]، وهذا محمول على أنه أراد أن يعرف شكله وجنسه وعينه، وإلاّ فهو يعلم أنه من نبات الأرض لقوله: ﴿فأنبتنا فيها حباً * وعنباً وقضباً * وزيتوناً ونخلاً * وحدائق غلباً * وفاكهة وأباً﴾. وقوله تعالى: ﴿متاعاً لكم ولأنعامكم﴾ أي عيشة لكم ولأنعامكم في هذه الدار، إلى يوم القيامة.

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾.

قال ابن عباس: ﴿الصاخة﴾ اسم من أسماء يوم القيامة، عظّمه الله وحذره عباده، وقال البغوي: ﴿الصاخة﴾ يعني يوم القيامة، سميت بذلك لأنها تصخ الأسماع، أي تبالغ في إسماعها حتى تكاد تصمها، ﴿يوم يفر المرء من أخيه * وأمه وأبيه * وصاحبته وبنيه﴾ أي يراهم ويفر منهم؛ لأن الهول عظيم، والخطب جليل، قال عكرمة: يلقى الرجل زوجته فيقول لها: يا هذه أي بعل كنت لك؟ فتقول: نعم البعل كنت، وتثني بخير ما استطاعت، فيقول لها: فإني أطلب إليك اليوم حسنة واحدة تهبيها لي لعلي أنجو مما ترين، فتقول له: ما أيسر ما طلبت، ولكن لا أطيق أن أعطيك شيئاً أتخوف مثل الذي تخاف، قال: وإن الرجل ليلقى ابنه فيعلق به فيقول: يا بني أي والد كنت لك؟ فيثني بخير، فيقول له: يا بني إني احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك لعلي أنجو بها مما ترى فيقول ولده: يا أبت ما أيسر ما طلبت، ولكني أتخوف مثل الذي تتخوف، فلا أستطيع أن أعطيك شيئاً، يقول الله تعالى: ﴿يوم يفر المرء من أخيه * وأمه وأبيه * وصاحبته وبنيه﴾ وفي الحديث الصحيح في أمر الشفاعة: حتى عيسى ابن مريم يقول: لا أسأله اليوم إلاّ نفسي، لا أسأله مريم التي ولدتني، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «تحشرون حفاة عراة مشاة غرلاً» قال: فقالت زوجته: يا رسول الله ننظر أو يرى بعضنا عورة بعض؟ قال: «الكل امرىء يومئذٍ شأن يغنيه» أو قال: «ما أشغله عن النظر»[2]. وروى النسائي عن عروة عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «يبعث الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً» فقالت عائشة: يا رسول الله فكيف بالعورات؟ فقال: «لكل امرىء منهم يومئذٍ شأن يغنيه»[3]. وعن أنس بن مالك قال: سألت عائشة رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي، إني سائلتك عن حديث فتخبرني أنت به، قال: «إن كان عندي منه علم» قالت يا نبي الله كيف يحشر الرجال؟ قال: «حفاة عراة» ثم انتظرت ساعة، فقالت: يا رسول الله كيف يحشر النساء؟ قال: «كذلك حفاة عراة» قالت: واسوأتاه من يوم القيامة، قال: «وعن أي ذلك تسألين إنه قد نزل علي آية لا يضرك كان عليك ثياب أو لا يكون»، قالت: أية آية هي يا نبي الله؟ قال: ﴿لكل امرىء منهم يومئذٍ شأن يغنيه﴾[4]، وقال البغوي في

(١) رواه ابن جرير، وإسناده صحيح كما قال ابن كثير.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم.
(٣) انفرد به النسائي من هذه الوجه.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم.

«تفسيره» عن سودة زوج النبي ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ: «يبعث الناس حفاة عراة غرلاً قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الآذان»، فقلت: يا رسول الله واسوأتاه ينظر بعضنا إلى بعض؟ فقال: قد شغل الناس ﴿لكل امرىء منهم يومئذٍ شأن يغنيه﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿وجوه يومئذٍ مسفرة * ضاحكة مستبشرة﴾ أي يكون الناس هنالك فريقين، وجوه مسفرة أي مستنيرة ﴿ضاحكة مستبشرة﴾ أي مسرورة فرحة، قد ظهر البشر على وجوههم، وهؤلاء هم أهل الجنة، ﴿ووجوه يومئذٍ عليها غبرة * ترهقها قترة﴾ أي يعلوها وتغشاها ﴿قترة﴾ أي سواد، وفي الحديث: «يلجم الكافر العرق ثم تقع الغبرة على وجوههم»، فهو قوله تعالى: ﴿ووجوه يومئذٍ عليها غبرة﴾[2]، وقال ابن عباس ﴿ترهقها قترة﴾ أي يغشاها سواد الوجوه، وقوله تعالى: ﴿أولئك هم الكفرة الفجرة﴾ أي الكفرة قلوبهم، الفجرة في أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿ولا يلدوا إلاّ فاجراً كفاراً﴾.

[آخر تفسير سورة عبس، ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) حديث غريب من هذا الوجه.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم.

٨١ ـ سورة التكوير

مكية وآياتها تسع وعشرون

قال رسول الله ﷺ: «من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ: ﴿إذا الشمس كورت﴾ و﴿إذا السماء انفطرت﴾ و﴿إذا السماء انشقت﴾» أخرجه أحمد.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ۝١٤﴾.

قال ابن عباس: ﴿إذا الشمس كورت﴾ يعني أظلمت، وقال العوفي عنه: ذهبت، وقال مجاهد: اضمحلت وذهبت، وقال قتادة: ذهب ضوءها، وقال سعيد بن جبير: ﴿كورت﴾ غورت، وقال زيد بن أسلم: تقع في الأرض، قال ابن جرير: والصواب من القول عندنا في ذلك أن التكوير جمع الشيء بعضه على بعض، ومنه تكوير العمامة وجمع الثياب بعضها إلى بعض، فمعنى قوله تعالى: ﴿كورت﴾ جمع بعضها إلى بعض، ثم لفت فرمي بها، وإذا فعل بها ذلك ذهب ضوؤها، روي عن ابن عباس أنه قال: يكور الله الشمس والقمر والنجوم يوم القيامة في البحر ويبعث الله ريحاً دبوراً فتضرمها ناراً[1]، وروى البخاري، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «الشمس والقمر يكوران يوم القيامة»[2]. وقوله تعالى: ﴿وإذا النجوم انكدرت﴾ أي انتثرت كما قال تعالى: ﴿وإذا الكواكب انتثرت﴾. وأصل الانكدار الانصباب، قال أبي بن كعب: ست آيات قبل يوم القيامة، بينا الناس في أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس، فبينما هم كذلك إذ تناثرت النجوم، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض، فتحركت واضطربت واختلطت، ففزعت الجن إلى الإنس والإنس إلى الجن، واختلطت الدواب والطير والوحوش، فماجوا بعضهم في بعض، ﴿وإذا الوحوش حشرت﴾ قال: اختلطت، ﴿وإذا العشار عطلت﴾ قال: أهملها أهلها، ﴿وإذا البحار سجرت﴾ قال: قالت الجن: نحن نأتيكم بالخبر، قال: فانطلقوا إلى البحر، فإذا هو نار تتأجج، قال: فبينما هم كذلك إذ تصدعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة السفلى، وإلى السماء السابعة العليا، قال: فبينما هم كذلك إذ جاءتهم الريح فأماتتهم[3]. وقال ابن عباس: ﴿وإذا النجوم انكدرت﴾ أي تغيرت، وعن يزيد بن أبي مريم مرفوعاً: «انكدرت في جهنم، وكل من عبد من دون الله فهو في جهنم، إلا ما كان من عيسى وأمه، ولو رضيا أن يعبدا لدخلاها»[4].

وقوله تعالى: ﴿وإذا الجبال سيرت﴾ أي زالت عن أماكنها ونسفت فتركت الأرض قاعاً صفصفاً،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٢) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق.

(٣) أخرجه ابن جرير.

(٤) رواه ابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿وإذا العشار عطلت﴾ عشار الإبل، قال مجاهد: ﴿عطلت﴾ تركت وسيّبت، وقال أُبي بن كعب: أهملها أهلها، وقال الربيع بن خيثم: لم تحلب وتخلى عنها أربابها، والمعنى في هذا كله متقارب، والمقصود أن العشار من الإبل وهي خيارها والحوامل منها، واحدتها عشراء قد اشتغل الناس عنها وعن كفالتها والانتفاع بها، بما دهمهم من الأمر العظيم الهائل، وهو أمر يوم القيامة ووقوع مقدماتها، وقيل: بل يكون ذلك يوم القيامة يراها أصحابها، كذلك لا سبيل لهم إليها، وقد قيل في العشار: إنها السحاب تعطل عن المسير بين السماء والأرض لخراب الدنيا، والراجح أنها الإبل، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿وإذا الوحوش حشرت﴾ أي جمعت كما قال تعالى: ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون﴾ قال ابن عباس: يحشر كل شيء حتى الذباب، وقال عكرمة: حشرها موتها، وعن ابن عباس قال: حشر البهائم موتها وحشر كل شيء الموت غير الجن والإنس[1]. وعن الربيع بن خيثم ﴿وإذا الوحوش حشرت﴾ قال: أتى عليها أمر الله، وعن أُبيّ بن كعب أنه قال: ﴿وإذا الوحوش حشرت﴾ اختلطت، قال ابن جرير: والأولى قول من قال حشرت جمعت، قال الله تعالى: ﴿والطير محشورة﴾ أي مجموعة، وقوله تعالى: ﴿وإذا البحار سجرت﴾ قال ابن عباس: يرسل الله عليها الرياح الدبور فتسعرها وتصير ناراً تأجج، وفي «سنن أبي داود»: «لا يركب البحر إلاّ حاج أو معتمر أو غاز، فإن تحت البحر ناراً وتحت النار بحراً» الحديث، وقال مجاهد ﴿سجرت﴾: أوقدت، وقال الحسن: يبست، وقال الضحاك وقتادة: غاض ماؤها فذهب فلم يبق فيها قطرة، وقال الضحاك أيضاً: ﴿سجرت﴾ فجّرت، وقال السدي: فتحت وصيرت، وقوله تعالى: ﴿وإذا النفوس زوّجت﴾ أي جمع كل شكل إلى نظيره كقوله تعالى: ﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم﴾ أي الضرباء كل رجل مع كل قوم كانوا يعملون عمله، روى النعمان بن بشير أن عمر بن الخطاب خطب الناس فقرأ: ﴿وإذا النفوس زوجت﴾ فقال: تزوجها أن تؤلف كل شيعة إلى شيعتهم، يقرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح، ويقرن بين الرجل السوء مع الرجل السوء في النار، فذلك تزويج الأنفس[2]، وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وإذا النفوس زوجت﴾ قال: ذلك حين يكون الناس أزواجاً ثلاثة، وقال مجاهد: ﴿وإذا النفوس زوجت﴾ قال: الأمثال من الناس جمع بينهم، واختاره ابن جرير، وقال الحسن البصري وعكرمة: زوجت الأرواح بالأبدان، وقيل: زوج المؤمنون بالحور العين، وزوج الكافرون بالشياطين[3].

وقوله تعالى: ﴿وإذا الموءودة سئلت * بأي ذنب قُتِلَت﴾ الموءودة هي التي كانت أهل الجاهلية يدسونها في التراب كراهية البنات، فيوم القيامة تسأل الموءودة على أي ذنب قُتلت ليكون ذلك تهديداً لقاتلها، فإنه إذا سئل المظلوم فما ظن الظالم إذاً؟ وقال ابن عباس: ﴿وإذا الموءودة سئلت﴾ أي سألت أي طالبت بدمها. وقد وردت أحاديث تتعلق بالموءودة فقال الإمام أحمد عن جذامة بنت وهب أخت عكاشة قالت: حضرت رسول الله ﷺ في ناس وهو يقول: «لقد هممت أن أنهى عن الغيلة فنظرت في الروم وفارس، فإذا هم يغيلون أولادهم، ولا يضر أولادهم ذلك شيئاً»، ثم سألوه عن العزل؟ فقال رسول الله ﷺ: «ذلك الوأد الخفي وهو الموءودة سئلت»[4]. وروى الإمام أحمد عن سلمة بن يزيد الجعفي قال: انطلقت أنا وأخي إلى رسول الله ﷺ فقلنا: يا رسول الله إن أمنا مليكة كانت تصل الرحم، وتقري الضيف، وتفعل، هلكت في الجاهلية فهل ذلك نافعها شيئاً؟ قال: «لا»، قلنا: فإنها كانت وأدت أختاً لنا في

---

(١) أخرجه ابن جرير.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٣) حكاه القرطبي في التذكرة.

(٤) أخرجه أحمد ورواه مسلم وأبو داود والترمذي بنحوه.

الجاهلية فهل ذلك نافعها شيئاً؟ قال: «الوائدة والموءودة في النار، إلاّ أن يدرك الوائدة الإسلام فيعفو الله عنها»[١]. وفي الحديث: «النبي في الجنة، والشهيد في الجنة، والمولود في الجنة، والموءودة في الجنة»[٢]. وعن قرة قال: سمعت الحسن يقول: قيل: يا رسول الله مَن في الجنة؟ قال: «الموءودة في الجنة»[٣]. وقال ابن عباس: أطفال المشركين في الجنة، فمن زعم أنهم في النار فقد كذب؛ يقول الله تعالى: ﴿وإذا الموءودة سئلت * بأي ذنب قتلت﴾، قال ابن عباس: هي المدفونة، وقال عبد الرزاق: جاء قيس بن عاصم إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني وأدت بنات لي في الجاهلية، قال: «أعتق عن كل واحدة منهن رقبة» قال: يا رسول الله إني صاحب إبل، قال: «فانحر عن كل واحدة منهن بدنة»[٤]. وقوله تعالى: ﴿وإذا الصحف نشرت﴾ قال الضحاك: أعطي كل إنسان صحيفته بيمينه أو بشماله، وقال قتادة: يا ابن آدم تملي فيها ثم تطوى، ثم تنشر عليك يوم القيامة، فلينظر رجل ماذا يملي في صحيفته، قوله تعالى: ﴿وإذا السماء كشطت﴾ قال مجاهد: اجتذبت؛ وقال السدي: كشفت، وقال الضحاك: تنكشط فتذهب، وقوله تعالى: ﴿وإذا الجحيم سعرت﴾ قال السدي: أحميت، وقال قتادة: أوقدت، قال: وإنما يسعرها غضب الله وخطايا بني آدم، وقوله تعالى: ﴿وإذا الجنة أزلفت﴾ قال الضحاك: أي قربت إلى أهلها، وقوله تعالى: ﴿علمت نفس ما أحضرت﴾ هذا هو الجواب أي إذا وقعت هذه الأمور حينئذٍ تعلم كل نفس ما عملت، وأحضر ذلك لها كما قال تعالى: ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً﴾، وقال تعالى: ﴿ينبأ الإنسان يومئذٍ بما قدم وأخر﴾ عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: لما نزلت: ﴿إذا الشمس كورت﴾ قال عمر لما بلغ ﴿علمت نفس ما أحضرت﴾ قال: لهذا أجري الحديث.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿فلا أقسم بالخنس * الجوار الكنس﴾ قال علي: هي النجوم تخنس بالنهار وتظهر بالليل. وروى ابن جرير عن خالد بن عرعرة سمعت علياً، وسئل عن ﴿فلا أقسم بالخنس * الجوار الكنس﴾ فقال: هي النجوم تخنس بالنهار وتظهر بالليل[٥]، وكذا روي عن ابن عباس ومجاهد والحسن: أنها النجوم، وقال بعض الأئمة: إنما قيل للنجوم الخنس، أي في حال طلوعها، ثم هي جوار في فلكها، وفي حال غيبوبتها يقال لها كنس، من قول العرب: أوى الظبي إلى كناسه، إذا تغيب فيه، وروى الأعمش عن عبد الله ﴿فلا أقسم بالخنس﴾ قال: بقر الوحش، وقال ابن عباس ﴿الجوار الكنس﴾ البقر تكنس إلى الظل، وقال العوفي عن ابن عباس: هي الظباء[٦]، وقال أبو الشعثاء: هي الظباء والبقر، وتوقف ابن جرير في المراد بقوله: «الخنس الجوار الكنس» هل هي النجوم أو الظباء وبقر الوحش؟ قال: ويحتمل أن يكون الجميع مراداً، وقوله تعالى: ﴿والليل إذا عسعس﴾ فيه قولان (أحدهما): إقباله بظلامه، قال مجاهد: أظلم، وقال

(١) أخرجه أحمد والنسائي.

(٢) أخرجه أحمد من حديث خنساء بنت معاوية الصريمية عن عمها قال: قلت: يا رسول الله من في الجنة؟ فقال الحديث.

(٣) هذا من مراسيل الحسن ومنهم من قبله.

(٤) أخرجه عبد الرزاق والحافظ البزار بنحوه عن عمر بن الخطاب.

(٥) أخرجه ابن جرير.

(٦) وكذا قال سعيد بن جبير ومجاهد والضحاك.

سعيد بن جبير: إذا نشأ، وقال الحسن البصري: إذا غشي الناس، (والثاني): إدباره، قال ابن عباس: ﴿إذا عسعس﴾ إذا أدبر، وكذا قال مجاهد وقتادة والضحاك ﴿إذا عسعس﴾ أي إذا ذهب فتولى، وقد اختار ابن جرير أن المراد بقوله: ﴿إذا عسعس﴾ إذا أدبر، قال: لقوله تعالى: ﴿والصبح إذا تنفس﴾ أي أضاء، واستشهد بقول الشاعر أيضاً:

حتى إذا الصبح له تنفسا وانجاب عنها ليلها وعسعسا

أي أدبر، وعندي أن المراد بقوله: ﴿إذا عسعس﴾ إذا أقبل، وإن كان يصح استعماله في الإدبار أيضاً، لكن الإقبال ههنا أنسب، كأنه أقسم بالليل وظلامه إذا أقبل، وبالفجر وضيائه إذا أشرق، كما قال تعالى: ﴿والليل إذا يغشى * والنهار إذا تجلى﴾، وقال تعالى: ﴿والضحى * والليل إذا سجى﴾، وقال تعالى: ﴿فالق الإصباح وجعل الليل سكناً﴾ وغير ذلك من الآيات، وقوله تعالى: ﴿والصبح إذا تنفس﴾ قال الضحاك: إذا طلع، وقال قتادة: إذا أضاء وأقبل، وقال سعيد بن جبير: إذا نشأ، وقال ابن جرير: يعني ضوء النهار إذا أقبل وتبين.

وقوله تعالى: ﴿إنه لقول رسول كريم﴾ يعني إن هذا القرآن لتبليغ رسول كريم، أي ملك شريف حسن الخلق بهي المنظر، وهو (جبريل) عليه الصلاة والسلام، ﴿ذي قوة﴾ كقوله تعالى: ﴿علمه شديد القوى * ذو مرة﴾ أي شديد الخلق شديد البطش والفعل، ﴿عند ذي العرش مكين﴾ أي له مكانة عند الله عزّ وجلّ ومنزلة رفيعة، ﴿مطاع ثَمّ﴾ أي له وجاهة وهو مسموع القول مطاع في الملأ الأعلى، قال قتادة: ﴿مطاع ثم﴾ أي في السماوات، يعني ليس هو من أفناد[1] الملائكة، بل هو من السادة والأشراف، معتنى به انتخب لهذه الرسالة العظيمة، وقوله تعالى: ﴿أمين﴾ صفة لجبريل بالأمانة، وهذا عظيم جداً أن الرب عزّ وجلّ يزكي عبده ورسوله الملكي جبريل كما زكى عبده ورسوله البشري محمداً ﷺ بقوله تعالى: ﴿وما صاحبكم بمجنون﴾ قال الشعبي وميمون: المراد بقوله ﴿وما صاحبكم بمجنون﴾ يعني محمداً ﷺ، وقوله تعالى: ﴿ولقد رآه بالأفق المبين﴾ يعني ولقد رأى محمد (جبريل) الذي يأتيه بالرسالة عن الله عزّ وجلّ، على الصورة التي خلقه الله عليها له ستمائة جناح، ﴿بالأفق المبين﴾ أي البين، وهي الرؤية الأولى كانت بالبطحاء، وهي المذكورة في قوله: ﴿علمه شديد القوى * ذو مرة فاستوى * وهو بالأفق الأعلى﴾، والظاهر أن هذه السورة نزلت قبل ليلة الإسراء، لأنه لم يذكر فيها إلاّ هذه الرؤية وهي الأولى، وأما الثانية وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿ولقد رآه نزلة أخرى * عند سدرة المنتهى * عندها جنة المأوى * إذ يغشى السدرة ما يغشى﴾ فتلك إنما ذكرت في سورة النجم، وقد نزلت بعد سورة الإسراء. وقوله تعالى: «وما هو على الغيب بظنين» أي بمتهم، ومنهم من قرأ ذلك بالضاد، أي ببخيل، بل يبذله لكل أحد. قال سفيان بن عيينة: «ظنين» و«ضنين» سواء، أي ما هو بفاجر، و«الظنين» المتهم، و«الضنين» البخيل، وقال قتادة: كان القرآن غيباً فأنزله الله على محمد، فما ضنّ به على الناس بل نشره وبلغه وبذله لكل من أراده، واختار ابن جرير قراءة الضاد. قلت: وكلاهما متواتر ومعناه صحيح كما تقدّم، وقوله تعالى: ﴿وما هو بقول شيطان رجيم﴾ أي وما هذا القرآن بقول شيطان رجيم، أي لا يقدر على حمله ولا يريده ولا ينبغي له، كما قال تعالى: ﴿وما تنزلت به الشياطين * وما ينبغي لهم وما يستطيعون * إنهم عن السمع لمعزولون﴾. وقوله تعالى: ﴿فأين تذهبون﴾؟ فأين تذهب عقولكم في تكذيبكم بهذا القرآن، مع ظهوره ووضوحه وبيان كونه حقاً من عند الله عزّ وجلّ! كما قال الصديق رضي الله عنه لوفد بني حنيفة حين قدموا مسلمين، وأمرهم فتلوا عليه شيئاً من قرآن مسيلمة الكذّاب الذي هو في غاية الهذيان والركاكة فقال: «ويحكم أين تذهب عقولكم؟ والله إن هذا الكلام لم يخرج من إل» أي من إله، وقال قتادة: ﴿فأين تذهبون﴾ أي عن كتاب الله وعن طاعته، وقوله تعالى: ﴿إن هو إلاّ ذكر للعالمين﴾ أي هذا

---

(١) أفناد: جماعات.

القرآن ذكر لجميع الناس يتذكرون به ويتعظون ﴿لمن شاء منكم أن يستقيم﴾ أي لمن أراد الهداية فعليه بهذا القرآن فإنه مناجاة له وهداية، ولا هداية فيما سواه، ﴿وما تشاءون إلاّ أن يشاء الله رب العالمين﴾ أي ليست المشيئة موكولة إليكم، بل ذلك كله تابع لمشيئة الله تعالى رب العالمين، قال سفيان الثوري: لما نزلت هذه الآية: ﴿لمن شاء منكم أن يستقيم﴾ قال أبو جهل: الأمر إلينا إن شئنا استقمنا، وإن شئنا لم نستقم، فأنزل الله تعالى: ﴿وما تشاءون إلاّ أن يشاء الله رب العالمين﴾.

[آخر تفسير سورة التكوير، ولله الحمد والمنة]

• • •

obeikandl.com

٨٢ ـ سورة الإنفطار

مكية وآياتها تسع عشرة

قد تقدم من رواية عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ قال: «من سره أن ينظر إلى القيامة رأي عين فليقرأ: ﴿إذا الشمس كورت﴾، و﴿إذا السماء انفطرت﴾، و﴿إذا السماء انشقت﴾».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿إذا السماء انفطرت﴾ أي انشقت، كما قال تعالى: ﴿السماء منفطر به﴾، ﴿وإذا الكواكب انتثرت﴾ أي تساقطت، ﴿وإذا البحار فجرت﴾ قال ابن عباس: فجر الله بعضها في بعض، وقال الحسن: فجر الله بعضها في بعض فذهب ماؤها، وقال قتادة: اختلط عذبها بمالحها، وقال الكلبي: ملئت. ﴿وإذا القبور بعثرت﴾ قال ابن عباس: بحثت. وقال السدي: تبعثر، تحرك فيخرج من فيها، ﴿علمت نفس ما قدمت وأخرت﴾ أي إذا كان هذا حصل هذا، وقوله تعالى: ﴿يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم﴾؟ هذا تهديد من الله للإنسان[1] والمعنى: ما غرك يا ابن آدم ﴿بربك الكريم﴾ أي العظيم، حتى أقدمت على معصيته، وقابلته بما لا يليق؟ كما جاء في الحديث: «يقول الله تعالى يوم القيامة: يا ابن آدم ما غرك بي؟ يا ابن آدم ماذا أجبت المرسلين؟» وعن يحيى البكاء قال: سمعت ابن عمر يقول وقرأ هذه الآية: ﴿يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم﴾ قال ابن عمر: غره والله جهله، وقال قتادة: ما غرّ ابن آدم غير هذا العدو الشيطان، وقال الفضل بن عياض: لو قال لي ما غرّك بي؟ لقلت: ستورك المرخاة، وقال أبو بكر الوراق: لو قال لي: ما غرك بربك الكريم؟ لقلت: غرني كرم الكريم، وقال بعض أهل الإشارة: إنما قال بربك الكريم دون سائر أسمائه وصفاته، كأنه لقنه الإجابة، وهذا الذي تخيله هذا القائل ليس بطائل، لأنه إنما أتى باسمه الكريم، لينبه على أنه لا ينبغي أن يقابل الكريم بالأفعال القبيحة وأعمال الفجور، وقوله تعالى: ﴿الذي خلقك فسواك فعدلك﴾ أي جعلك سوياً مستقيماً معتدل القامة، منتصبا في أحسن الهيئات والأشكال، روى الإمام أحمد عن بشر بن جحاش القرشي أن رسول الله ﷺ بصق يوماً في كفه، فوضع عليها إصبعه ثم قال: «قال الله عزّ وجلّ: يا ابن آدم أنى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذا؟ حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت، حتى إذا بلغت التراقي قلت: أتصدق وأنى أوان الصدقة؟»[2].

وقوله تعالى: ﴿في أي صورة ما شاء ركبك﴾ قال مجاهد: في أي شبه أب أو أم، أو خال أو عم، وقال عكرمة في قوله تعالى: ﴿في أي صورة ما شاء ركبك﴾ إن شاء في صورة قرد، وإن شاء في صورة خنزير، وكذا قال أبو صالح: إن شاء في صورة كلب، وإن شاء في صورة حمار، وإن شاء في صورة خنزير،

---

(١) الكلام تهديد كما قال ابن كثير، وليس كما زعم بعضهم أنه إرشاد إلى الجواب حتى قالوا.

(٢) أخرجه أحمد وابن ماجة.

وقال قتادة: قادر والله ربنا على ذلك، ومعنى هذا القول عندهم أن الله عزّ وجلّ قادر على خلق النطفة على شكل قبيح، من الحيوانات المنكرة الخلق، ولكن بقدرته ولطفه وحلمه، يخلقه على شكل حسن مستقيم، معتدل تام حسن المنظر والهيئة، وقوله تعالى: ﴿كلا بل تكذبون بالدين﴾ أي إنما يحملكم على مواجهة الكريم ومقابلته بالمعاصي، تكذيب قلوبكم بالمعاد والجزاء والحساب، وقوله تعالى: ﴿وإن عليكم لحافظين * كراماً كاتبين * يعلمون ما تفعلون﴾ يعني وإن عليكم لملائكة حفظة كراماً، فلا تقابلوهم بالقبائح، فإنهم يكتبون عليكم جميع أعمالكم، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ينهاكم عن التعري، فاستحيوا من ملائكة الله الذين معكم الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلاّ عند إحدى ثلاث حالات: الغائط والجنابة والغسل، فإذا اغتسل أحدكم بالعراء فليستتر بثوبه أو بجرم حائط أو ببعيره». وفي الحديث: «ما من حافظين يرفعان إلى الله عزّ وجلّ ما حفظا في يوم فيرى في أول الصحيفة وفي آخرها استغفاراً إلاّ قال الله تعالى: قد غفرت لعبدي ما بين طرفي الصحيفة»[1]، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملائكة يعرفون بني آدم ـ وأحسبه قال: ويعرفون أعمالهم ـ فإذا نظروا إلى عبد يعمل بطاعة الله ذكروه بينهم وسموه، وقالوا: أفلح الليلة فلان، نجا الليلة فلان، وإذا نظروا إلى عبد يعمل بمعصية الله ذكروه بينهم وسموه وقالوا: هلك الليلة فلان»[2].

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١٩﴾﴾.

يخبر تعالى عما يصير الأبرار إليه من النعيم، وهم الذين أطاعوا الله عزّ وجلّ ولم يقابلوه بالمعاصي، ثم ذكر ما يصير إليه الفجار من الجحيم والعذاب المقيم، ولهذا قال: ﴿يصلونها يوم الدين﴾ أي يوم الحساب والجزاء والقيامة، ﴿وما هم عنها بغائبين﴾ أي لا يغيبون عن العذاب ساعة واحدة، ولا يخفف عنهم من عذابها، ولا يجابون إلى ما يسألون من الموت أو الراحة ولو يوماً واحداً، وقوله تعالى: ﴿وما أدراك ما يوم الدين﴾ تعظيم لشأن يوم القيامة، ثم أكده بقوله تعالى: ﴿ثم ما أدراك ما يوم الدين﴾، ثم فسره بقوله: ﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً﴾ أي لا يقدر أحد على نفع أحد ولا خلاصه مما هو فيه، إلاّ أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى، وفي الحديث قال عليه السلام: «يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار لا أملك لكم من الله شيئاً»، ولهذا قال: ﴿والأمر يومئذ لله﴾ كقوله تعالى: ﴿لمن الملك اليوم* لله الواحد القهار﴾ قال قتادة: ﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله﴾ والأمر والله اليوم لله، لكنه لا ينازعه فيه يومئذٍ أحد.

[آخر تفسير سورة الانفطار، ولله الحمد والمنة وبه التوفيق والعصمة]

* * *

(١) أخرجه الحافظ البزار عن أنس بن مالك مرفوعاً.

(٢) أخرجه البزار أيضاً وفي سنده سلام المدائني ليّن الحديث.

٨٣ ـ سورة المطففين

مكية وآياتها ست وثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ويل للمطففين ① الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ② وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ③ ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ④ ليوم عظيم ⑤ يوم يقوم الناس لرب العالمين ⑥﴾.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً، فأنزل الله تعالى: ﴿ويل للمطففين﴾ فحسنوا الكيل بعد ذلك[1]، وروى ابن جرير، عن عبد الله قال: قال له رجل: يا أبا عبد الرحمن إن أهل المدينة ليوفون الكيل، قال: وما يمنعهم أن يوفوا الكيل، وقد قال الله تعالى: ﴿ويل للمطففين﴾ حتى بلغ: ﴿يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾[2]، والمراد بالتطفيف ههنا البخس في المكيال والميزان؛ إما بالازدياد إن اقتضى من الناس، وإما النقصان إن قضاهم، ولهذا فسر تعالى المطففين الذين وعدهم بالخسار والهلاك بقوله تعالى: ﴿إذا اكتالوا على الناس﴾ أي من الناس ﴿يستوفون﴾ أي يأخذون حقهم بالوافي الزائد، ﴿وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون﴾ أي ينقصون، والأحسن أن يجعل «كالوا ووزنوا» متعدياً ويكون «هم» في محل نصب، وقد أمر الله تعالى بالوفاء في الكيل والميزان فقال تعالى: ﴿وأوفوا الكيل إذا كلتم﴾، وقال تعالى: ﴿وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان﴾، وأهلك الله قوم شعيب ودمرهم على ما كانوا يبخسون الناس في الميزان والمكيال، ثم قال تعالى متوعداً لهم: ﴿ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون * ليوم عظيم﴾؟ أي ما يخاف أولئك من البعث والقيام بين يدي من يعلم السرائر والضمائر، في يوم عظيم الهول، كثير الفزع جليل الخطب، من خسر فيه أدخل ناراً حامية؟ وقوله تعالى: ﴿يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾ أي يقومون حفاة عراة، في موقف صعب حرج، ضيق على المجرم، ويغشاهم من أمر الله تعالى ما تعجز القوى والحواس عنه، عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «يوم يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه»[3]، وفي رواية لأحمد عن النبي ﷺ قال: «يوم يقوم الناس لرب العالمين، لعظمة الرحمن عزّ وجلّ يوم القيامة، حتى إن العرق ليلجم الرجال إلى أنصاف آذانهم»[4]. حديث آخر: وروى الإمام أحمد عن المقداد بن الأسود الكِندي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كان يوم القيامة أدنيت الشمس من العباد حتى تكون قدر ميل أو ميلين ـ قال ـ فتصهرهم الشمس فيكونون في العرق كقدر أعمالهم، منهم من يأخذه إلى عقبيه ومنهم من يأخذه إلى ركبتيه، ومنهم من يأخذه إلى حقويه، ومنهم من يلجمه إلجاماً»[5]. حديث آخر: روى الإمام أحمد، عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تدنو الشمس من الأرض فيعرق الناس، فمن الناس من يبلغ عرقه عقبيه، ومنهم من يبلغ إلى نصف الساق، ومنهم من يبلغ ركبتيه، ومنهم من يبلغ العجز، ومنهم من يبلغ الخاصرة، ومنهم من يبلغ منكبيه، ومنهم من يبلغ وسط فيه ـ وأشار بيده فألجمها فاه ـ رأيت رسول الله ﷺ يشير بيده هكذا ـ ومنهم من يغطيه عرقه» وضرب بيده إشارة[6]. وفي «سنن أبي داود» أن رسول الله ﷺ كان يتعوذ بالله من ضيق المقام يوم

---

(١) أخرجه النسائي وابن ماجة.
(٢) رواه ابن جرير.
(٣) أخرجه البخاري ومسلم والإمام مالك.
(٤) أخرجه الإمام أحمد.
(٥) رواه مسلم والترمذي وأحمد.
(٦) أخرجه الإمام أحمد.

القيامة، وعن ابن مسعود: يقومون أربعين سنة رافعي رؤوسهم إلى السماء لا يكلمهم أحد قد ألجم العرق برهم وفاجرهم.

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ كَلَّا بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٤ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ۝١٦ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝١٧﴾.

يقول تعالى حقاً: ﴿إن كتاب الفجار لفي سجين﴾ أي إن مصيرهم ومأواهم ﴿لفي سجين﴾ فعّيل من السجن، وهو الضيق كما يقال: فسّيق وخمّير وسكّير ونحو ذلك، ولهذا عظّم أمره فقال تعالى: ﴿وما أدراك ما سجّين﴾؟ أي هو أمر عظيم، وسجين مقيم، وعذاب أليم، ثم قال قائلون: هي تحت الأرض السابعة، وقد تقدم في حديث البراء بن عازب يقول الله عزّ وجلّ في روح الكافر «اكتبوا كتابه في سجين»، وقيل: بئر في جهنم، والصحيح أن سجيناً مأخوذ من السجن وهو الضيق، فإن المخلوقات كل ما تسافل منها ضاق وكل ما تعالى منها اتسع، ولما كان مصير الفجار إلى جهنم وهي أسفل السافلين، كما قال تعالى: ﴿ثم رددناه أسفل سافلين * إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ وقال ههنا: ﴿كلا إن كتاب الفجار لفي سجين * وما أدراك ما سجين﴾ وهو يجمع الضيق والسفول كما قال تعالى: ﴿وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً﴾، وقوله تعالى: ﴿كتاب مرقوم﴾ ليس تفسيراً لقوله: ﴿وما أدراك ما سجين﴾، وإنما هو تفسير لما كتاب لهم من المصير إلى سجين، أي مرقوم مكتوب مفروغ منه، لا يزاد فيه أحد ولا ينقص منه أحد، ثم قال تعالى: ﴿ويل يومئذٍ للمكذبين﴾ أي إذا صاروا يوم القيامة إلى ما أوعدهم الله من السجن والعذاب المهين، ﴿ويل﴾ لهم والمراد من ذلك الهلاك والدمار كما يقال: ويل لفلان، ثم قال تعالى مفسراً للمكذبين الفجار الكفرة: ﴿الذين يكذبون بيوم الدين﴾ أي لا يصدقون بوقوعه، ولا يعتقدون كونه، ويستبعدون أمره، قال الله تعالى: ﴿وما يكذب به إلاّ كل معتد أثيم﴾ أي معتد في أفعاله من تعاطي الحرام، والمجاوزة في تناول المباح، والأثيم في أقواله إن حدث كذب، وإن وعد أخلف وإن خاصم فجر.

وقوله تعالى: ﴿إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين﴾ أي إذا سمع كلام الله تعالى من الرسول يكذب به، ويظن به ظن السوء، فيعتقد أنه مفتعل مجموع من كتب الأوائل، كما قال تعالى: ﴿وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين﴾، وقال تعالى: ﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً﴾ قال الله تعالى: ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾ أي ليس الأمر كما زعموا، ولا كما قالوا: إن هذا القرآن أساطير الأولين، بل هو كلام الله ووحيه وتنزيله على رسوله ﷺ، وإنما حجب قلوبهم عن الإيمان به، ما عليها من الرين الذي قد لبس قلوبهم، من كثرة الذنوب والخطايا، ولهذا قال تعالى: ﴿ما كانوا يكسبون﴾ والرين يعتري قلوب الكافرين، والغَيْن للمقربين، وقد روى الترمذي والنسائي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إن العبد إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب منها صقل قلبه، وإن زاد زادت، فذلك قول الله تعالى: ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾»(١) ولفظ النسائي: «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكت في قلبه نكتة سوداء، فإن هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه، فإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، فهو الران الذي قال الله تعالى: ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾»(٢). وقال الحسن البصري: هو الذنب حتى يعمى القلب فيموت(٣)، وقوله تعالى: ﴿كلا إنهم عن ربهم يومئذٍ لمحجوبون﴾ أي ثم هم يوم القيامة محجوبون عن رؤية ربهم وخالقهم، قال الإمام الشافعي: وفي هذه الآية دليل على أن

(١) أخرجه الترمذي والنسائي، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) هذا لفظ النسائي وقد رواه أحمد بنحوه.

(٣) وكذا قال مجاهد وقتادة وابن زيد.

المؤمنين يرونه عزّ وجلّ يومئذٍ، وهذا الذي قاله في غاية الحسن، وهو استدلال بمفهوم هذه الآية، كما دل عليه منطوق قوله تعالى: ﴿وجوه يومئذٍ ناضرة * إلى ربها ناظرة﴾، وكما دلت على ذلك الأحاديث الصحاح المتواترة، في رؤية المؤمنين ربهم عزّ وجلّ في الدار الآخرة، قال الحسن: يكشف الحجاب فينظر إليه المؤمنون والكافرون، ثم يحجب عنه الكافرون، وينظر إليه المؤمنون كل يوم غدوة وعشية، وقوله تعالى: ﴿ثم إنهم لصالوا الجحيم﴾ أي ثم هم مع هذا الحرمان عن رؤية الرحمن، من أهل النيران، ﴿ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون﴾ أي يقال لهم ذلك، على وجه التقريع والتوبيخ، والتصغير والتحقير.

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

يقول تعالى: حقاً إن كتاب الأبرار ـ وهم بخلاف الفجار ـ ﴿لفي عليين﴾ أي مصيرهم إلى عليين وهو بخلاف سجين، روى الأعمش عن هلال بن يساف قال: سأل ابن عباس كعباً ـ وأنا حاضر ـ عن سجين؟ قال: هي الأرض السابعة وفيها أرواح الكفار، وسأله عن عليين؟ فقال: هي السماء السابعة وفيها أرواح المؤمنين[1]، وقال ابن عباس: ﴿لفي عليين﴾ يعني الجنة، وفي رواية عنه: أعمالهم في السماء عند الله، وقال قتادة: عليون ساق العرش اليمنى، وقال غيره: عليون عند سدرة المنتهى، والظاهر أن عليين مأخوذ من العلو، وكلما علا الشيء وارتفع عظم واتسع، ولهذا قال تعالى معظماً أمره ومفخماً شأنه: ﴿وما أدراك ما عليون﴾؟ ثم قال تعالى مؤكداً لما كتب لهم: ﴿كتاب مرقوم * يشهده المقربون﴾ وهم الملائكة قاله قتادة، وقال ابن عباس: يشهده من كل سماء مقربوها، ثم قال تعالى: ﴿إن الأبرار لفي نعيم﴾ أي يوم القيامة هم في نعيم مقيم، وجنات فيها فضل عميم ﴿على الأرائك﴾ وهي السرر تحت الحجال ﴿ينظرون﴾ قيل: معناه ينظرون في ملكهم، وما أعطاهم الله من الخير، والفضل الذي لا ينقضي ولا يبيد، وقيل: معناه: ﴿على الأرائك ينظرون﴾ إلى الله عزّ وجلّ، كما تقدم في حديث ابن عمر: «إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر في ملكه مسيرة ألفي سنة يرى أقصاه كما يرى أدناه وإن أعلاهم لمن ينظر إلى الله عزّ وجلّ في اليوم مرتين». وقوله تعالى: ﴿تعرف في وجوههم نضرة النعيم﴾ أي تعرف إذا نظرت إليهم في وجوههم ﴿نضرة النعيم﴾ أي صفة الترافة والسرور، والدعة والرياسة، مما هم فيه من النعيم العظيم. وقوله تعالى: ﴿يسقون من رحيق مختوم﴾ أي يسقون من خمر من الجنة، والرحيق من أسماء الخمر[2]، وفي الحديث: «أيما مؤمن سقى مؤمناً شربة ماء على ظمإ سقاه الله تعالى يوم القيامة من الرحيق المختوم، وأيما مؤمن أطعم مؤمناً على جوع أطعمه الله من ثمار الجنة، وأيما مؤمن كسا مؤمناً ثوباً على عري كساه الله من خضر الجنة»[3]، وقال ابن مسعود في قوله: ﴿ختامه مسك﴾ أي خلطه مسك، وقال ابن عباس: طيب الله لهم الخمر، فكان آخر شيء جعل فيها مسك ختم بمسك، وقال الحسن: عاقبته مسك، وقال ابن جرير، عن أبي الدرداء: ﴿ختامه مسك﴾ قال: شراب أبيض مثل الفضة يختمون به شرابهم، ولو أن رجلاً من أهل الدنيا أدخل أصبعه فيه ثم أخرجها، لم يبق ذو روح إلا وجد طيبها[4]، وقال مجاهد: ﴿ختامه مسك﴾ طيبه مسك، وقوله تعالى: ﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾ أي وفي مثل هذا الحال فليتفاخر المتفاخرون، وليتباهى وليستبق إلى مثله المستبقون كقوله تعالى: ﴿لمثل هذا فليعمل العاملون﴾، وقوله تعالى: ﴿ومزاجه من تسنيم﴾ أي مزاج هذا

(١) وهكذا قال غير واحد من السلف أنها السماء السابعة.

(٢) وهو قول ابن مسعود وابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة.

(٣) أخرجه أحمد عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً.

(٤) أخرجه ابن جرير.

الرحيق الموصوف ﴿من تسنيم﴾ أي من شراب يقال له تسنيم، وهو أشرف شراب أهل الجنة وأعلاه، ولهذا قال: ﴿عيناً يشرب بها المقربون﴾ أي يشربها المقربون صرفاً، وتمزج لأصحاب اليمين مزجاً[1].

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

يخبر تعالى عن المجرمين، أنهم كانوا في الدار الدنيا يضحكون من المؤمنين، أي يستهزئون بهم ويحتقرونهم، وإذا مروا بالمؤمنين يتغامزون عليهم أي محتقرين لهم ﴿وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين﴾ أي وإذا انقلب أي رجع هؤلاء المجرمون إلى منازلهم انقلبوا إليها فاكهين، أي مهما طلبوا وجدوا، ومع هذا ما شكروا نعمة الله عليهم، بل اشتغلوا بالقوم المؤمنين يحقرونهم ويحسدونهم ﴿وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون﴾ أي لكونهم على غير دينهم، قال الله تعالى: ﴿وما أرسلوا عليهم حافظين﴾ أي وما بعث هؤلاء المجرمون، حافظين على هؤلاء المؤمنين، ما يصدر منهم من أعمالهم وأقوالهم، ولا كلفوا بهم، فلم اشتغلوا بهم وجعلوهم نصب أعينهم؟ كما قال تعالى: ﴿إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين * فاتخذتموهم سخرياً حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون﴾، ولهذا قال ههنا: ﴿فاليوم﴾ يعني يوم القيامة ﴿الذين آمنوا من الكفار يضحكون﴾ أي في مقابلة ما ضحك بهم أولئك ﴿على الأرائك ينظرون﴾ أي إلى الله عزّ وجلّ، ينظرون إلى ربهم في دار كرامته، وقوله تعالى: ﴿هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون﴾؟ أي هل جوزي الكفار على ما كانوا يقابلون به المؤمنين، من الاستهزاء والسخرية أم لا؟ يعني قد جوزوا أوفر الجزاء وأتمه وأكمله.

[آخر تفسير سورة المطففين، ولله الحمد والمنة]

• • •

(١) قاله ابن مسعود وابن عباس ومسروق وقتادة وغيرهم.

٨٤ - سورة الإنشقاق

مكية وآياتها خمس وعشرون

روى البخاري، عن أبي رافع قال: «صليتُ مع أبي هريرة العتمة فقرأ: ﴿إذا السماء انشقت﴾ فسجد، فقلت له، فقال: سجدت خلف أبي القاسم ﷺ فلا أزال أسجد بها حتى ألقاه»[١].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝١٣ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ۝١٥﴾.

يقول تعالى: ﴿إذا السماء انشقت﴾ وذلك يوم القيامة، ﴿وأذنت لربها﴾ أي استمعت لربها وأطاعت أمره فيما أمرها به من الانشقاق، وذلك يوم القيامة ﴿وحُقّت﴾ أي وحق لها أن تطيع أمره، لأنه العظيم الذي لا يمانع ولا يغالب، بل قد قهر كل شيء وذل له كل شيء، ثم قال: ﴿وإذا الأرض مدّت﴾ أي بسطت وفرشت ووسعت، وفي الحديث «إذا كان يوم القيامة مد الله الأرض مد الأديم، حتى لا يكون لبشر من الناس إلاّ موضع قدميه»[٢]. وقوله تعالى: ﴿وألقت ما فيها وتخلت﴾ أي ألقت ما في بطنها من الأموات وتخلت عنهم، ﴿وأذنت لربها وحقت﴾ كما تقدم، وقوله: ﴿يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً﴾ أي إنك ساع إلى ربك سعياً وعامل عملاً ﴿فملاقيه﴾ ثم إنك ستلقى ما عملت من خير أو شر، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «قال جبريل: يا محمد عش ما شئت فإنك ميت، وأحب ما شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك ملاقيه»[٣]، ومن الناس من يعيد الضمير على قوله ﴿ربك﴾ أي فملاق ربك ومعناه فيجازيك بعملك ويكافئك على سعيك، قال ابن عباس: تعمل عملاً تلقى الله به خيراً كان أو شراً، وقال قتادة: ﴿يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً﴾ إن كدحك يا ابن آدم لضعيف، فمن استطاع أن يكون كدحه في طاعة الله فليفعل ولا قوة إلاّ بالله، ثم قال تعالى: ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه * فسوف يحاسب حساباً يسيراً﴾ أي سهلاً بلا تعسير أي لا يحقق عليه جميع دقائق أعماله، فإن من حوسب كذلك هلك لا محالة، روى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من نوقش الحساب عذب»، قالت: فقلت: أفليس قال الله تعالى: ﴿فسوف يحاسب حساباً يسيراً﴾، قال: «ليس ذاك بالحساب، ولكن ذلك العرض، من نوقش الحساب يوم القيامة عذب»[٤]. وروى ابن جرير، عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إنه ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلاّ معذباً»، فقلت: أليس الله يقول ﴿فسوف يحاسب حساباً يسيراً﴾؟ قال: «ذاك العرض، إنه من نوقش الحساب عذب»، وقال بيده على إصبعه كأنه ينكت[٥]. وفي رواية عن عائشة قالت: «من نوقش الحساب - أو من حوسب - عذب»، ثم قالت: إنما الحساب اليسير عرض على الله تعالى وهو يراهم»[٦]. وقوله تعالى: ﴿وينقلب إلى أهله مسروراً﴾ أي ويرجع إلى أهله في

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم والنسائي. (٢) أخرجه ابن جرير عن علي بن الحسين مرفوعاً.
(٣) أخرجه أبو داود الطيالسي. (٤) أخرجه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي.
(٥) أخرجه الشيخان وابن جرير. (٦) رواه ابن جرير.

الجنة ﴿مسروراً﴾ أي فرحاً مغتبطاً بما أعطاه الله عزَّ وجلَّ، وقد روى الطبراني عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ أنه قال: إنكم تعملون أعمالاً لا تعرف، ويوشك الغائب أن يثوب إلى أهله فمسرور أو مكظوم[1]. وقوله تعالى: ﴿وأما من أوتي كتابه وراء ظهره﴾ أي بشماله من وراء ظهره تثنى يده إلى ورائه، ويعطى كتابه بها كذلك ﴿فسوف يدعو ثبوراً﴾ أي خساراً وهلاكاً ﴿ويصلى سعيراً * إنه كان في أهله مسروراً﴾ أي فرحاً لا يفكر في العواقب، ولا يخاف مما أمامه فأعقبه ذلك الفرح اليسير الحزن الطويل، ﴿إنه ظنّ أن لن يحور﴾ أي كان يعتقد أنه لا يرجع إلى الله، ولا يعيده بعد موته، قاله ابن عباس وقتادة وغيرهما، والحَوْر هو الرجوع، قال الله: ﴿بلى إن ربه كان به بصيراً﴾ يعني بلى سيعيده الله كما بدأه ويجازيه على أعماله خيرها وشرها فإنه ﴿كان به بصيراً﴾ أي عليماً خبيراً.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾﴾.

قال علي وابن عباس: «الشفق» الحمرة، وقال عبد الرزاق، عن أبي هريرة: «الشفق» البياض، فالشفق هو حمرة الأفق، إما قبل طلوع الشمس، كما قاله مجاهد، وإما بعد غروبها كما هو معروف عند أهل اللغة، قال الخليل: الشفق: الحمرة من غروب الشمس إلى وقت العشاء الآخرة، فإذا ذهب قيل: غاب الشفق، وفي الحديث: «وقت المغرب ما لم يغب الشفق»[2]، ولكن صح عن مجاهد أنه قال في هذه الآية: ﴿فلا أقسم بالشفق﴾ هو النهار كله، وإنما حمله على هذا قرنه بقوله تعالى: ﴿والليل وما وسق﴾ أي جمع، كأنه أقسم بالضياء والظلام، قال ابن جرير: أقسم الله بالنهار مدبراً وبالليل مقبلاً، وقال آخرون: الشفق اسم للحمرة والبياض، وهو من الأضداد. قال ابن عباس ومجاهد: ﴿وما وسق﴾ وما جمع، وقال قتادة: وما جمع من نجم ودابة، وقال عكرمة: ما ساق من ظلمة إذا كان الليل ذهب كل شيء إلى مأواه، وقوله تعالى: ﴿والقمر إذا اتسق﴾ قال ابن عباس: إذا اجتمع واستوى، وقال الحسن: إذا اجتمع وامتلأ، وقال قتادة: إذا استدار، ومعنى كلامهم أنه إذا تكامل نوره وأبدر جعله مقابلاً لليل وما وسق.

وقوله تعالى: ﴿لتركبن طبقاً عن طبق﴾ قال البخاري: قال ابن عباس: ﴿لتركبن طبقاً عن طبق﴾ حالاً بعد حال، قال: هذا نبيكم ﷺ[3]، وقال الشعبي ﴿لتركبن طبقاً عن طبق﴾ قال: لتركبنّ يا محمد سماء بعد سماء، يعني ليلة الإسراء، وقيل: ﴿طبقاً عن طبق﴾ منزلاً على منزل، ويقال: أمراً بعد أمر، وحالاً بعد حال[4]، وقال السدي: ﴿لتركبن طبقاً عن طبق﴾ أعمال من قبلكم منزلاً بعد منزل، وكأنه أراد معنى الحديث الصحيح: «لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه»، قالوا: يا رسول الله: اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟». وقال ابن مسعود: ﴿طبقاً عن طبق﴾ السماء مرة كالدهان، ومرة تنشق، وقال سعيد بن جبير ﴿لتركبن طبقاً عن طبق﴾ قال: قوم كانوا في الدنيا خسيسٌ أمرهم فارتفعوا في الآخرة، وآخرون كانوا أشرافاً في الدنيا فاتضعوا في الآخرة، وقال عكرمة: ﴿طبقاً عن طبق﴾ حالاً بعد حال فطيماً بعدما كان رضيعاً، وشيخاً بعد ما كان شاباً، وقال الحسن البصري: ﴿طبقاً عن طبق﴾ يقول: حالاً بعد حال، رخاء بعد شدة، وشدة بعد رخاء، وغنى بعد فقر، وفقراً بعد غنى، وصحة بعد سقم، وسقماً

(١) أخرجه الطبراني.
(٢) أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو.
(٣) أخرجه البخاري.
(٤) هي رواية العوفي عن ابن عباس.

بعد صحة. ثم قال ابن جرير: والصواب من التأويل قول من قال: لتركبن أنت يا محمد حالاً بعد حال، وأمراً بعد أمر من الشدائد، والمراد بذلك ـ وإن كان الخطاب موجهاً إلى رسول الله ﷺ ـ جميع الناس، وأنهم يلقون من شدائد يوم القيامة وأحواله أهوالاً، وقوله تعالى: ﴿فما لهم لا يؤمنون * وإذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون﴾ أي فماذا يمنعهم من الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، وما لهم إذا قرئت عليهم آيات الله وهو هذا القرآن لا يسجدون إعظاماً وإكراماً واحتراماً؟ وقوله تعالى: ﴿بل الذين كفروا يكذبون﴾ أي من سجيتهم التكذيب والعناد والمخالفة للحق، ﴿والله أعلم بما يوعون﴾ قال مجاهد وقتادة: يكتمون في صدورهم، ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ أي فأخبرهم يا محمد بأن الله عزّ وجلّ قد أعد لهم عذاباً أليماً، وقوله تعالى: ﴿إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ هذا استثناء منقطع يعني لكن الذين آمنوا أي بقلوبهم ﴿وعملوا الصالحات﴾ أي بجوارحهم ﴿لهم أجر﴾ أي في الدار الآخرة ﴿غير ممنون﴾ قال ابن عباس: غير منقوص، وقال مجاهد: غير محسوب، وحاصل قولهما أنه غير مقطوع، كما قال تعالى: ﴿عطاء غير مجذوذ﴾، وقال السدي: قال بعضهم: غير ممنون: غير منقوص، وقال بعضهم: غير ممنون عليهم، وهذا القول قد أنكره غير واحد، فإن الله عزّ وجلّ له المنة على أهل الجنة، في كل حال وآن ولحظة، وإنما دخلوها بفضله ورحمته لا بأعمالهم، فله عليهم المنة دائماً سرمداً، والحمد لله وحده أبداً.

[آخر تفسير سورة الانشقاق، ولله الحمد والمنة وبه التوفيق والعصمة]

• • •

٨٥ ـ سورة البروج

مكية وآياتها ثنتان وعشرون

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العشاء الآخرة بـ«السماء ذات البروج»، ﴿والسماء والطارق﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾.

يقسم تعالى بالسماء وبروجها وهي النجوم العظام، قال ابن عباس: البروج النجوم، وقال يحيى بن رافع: البروج قصور في السماء، وقال المنهال بن عمرو: ﴿والسماء ذات البروج﴾ الخلق الحسن، واختار ابن جرير أنها منازل الشمس والقمر، وهي اثنا عشر برجاً تسير الشمس في كل واحد منها شهراً، ويسير القمر في كل واحد منها يومين وثلثا، فذلك ثمانية وعشرون منزلة ويستتر ليلتين، وقوله تعالى: ﴿واليوم الموعود * وشاهد ومشهود﴾ اختلف المفسرون في ذلك فروي عن أبي هريرة مرفوعاً ﴿واليوم الموعود﴾ يوم القيامة، ﴿وشاهد﴾ يوم الجمعة، ﴿ومشهود﴾ يوم عرفة[١]. روى الإمام أحمد، عن أبي هريرة أنه قال في هذه الآية ﴿وشاهد ومشهود﴾ قال: الشاهد يوم الجمعة، والمشهود يوم عرفة، والموعود يوم القيامة[٢]. وعن سعيد بن المسيب أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن سيد الأيام يوم الجمعة، وهو الشاهد، والمشهود يوم عرفة»[٣]، وروى ابن جرير عن ابن عباس قال: الشاهد هو محمد ﷺ، والمشهود يوم القيامة. ثم قرأ: ﴿ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود﴾[٤]. وسأل رجل الحسن بن علي عن ﴿وشاهد ومشهود﴾ فقال: سألت أحداً قبلي؟ قال: نعم، سألت ابن عمر وابن الزبير فقالا: يوم الذبح ويوم الجمعة، فقال: لا، ولكن الشاهد محمد ﷺ، ثم قرأ: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ والمشهود يوم القيامة، ثم قرأ: ﴿ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود﴾[٥] وهكذا قال الحسن البصري، وقال مجاهد والضحاك: الشاهد ابن آدم، والمشهود يوم القيامة، وعن عكرمة: الشاهد محمد ﷺ، والمشهود يوم الجمعة، وقال ابن عباس: الشاهد الله، والمشهود يوم القيامة، وقال ابن أبي حاتم عن مجاهد عن ابن عباس ﴿وشاهد ومشهود﴾ قال: الشاهد الإنسان، والمشهود يوم الجمعة[٦]، وقال ابن جرير، عن ابن عباس: ﴿وشاهد ومشهود﴾ الشاهد يوم عرفة، والمشهود يوم القيامة، قال ابن جرير: وقال آخرون: «المشهود» يوم الجمعة، لحديث أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «أكثروا من الصلاة يوم الجمعة، فإنه يوم مشهود

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، والأشبه أنه موقوف على أبي هريرة.
(٢) أخرجه أحمد.
(٣) هذا من مراسيل سعيد بن المسيب.
(٤) أخرجه ابن جرير.
(٥) أخرجه ابن جرير أيضاً.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم.

تشهده الملائكة»[١]، وعن سعيد بن جبير: الشاهد الله، وتلا: ﴿وكفى بالله شهيداً﴾ والمشهود نحن[٢]، وقال الأكثرون على أن الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة.

وقوله تعالى: ﴿قتل أصحاب الأخدود﴾ أي لعن أصحاب الأخدود، وجمعه أخاديد وهي الحفر في الأرض، وهذا خبر عن قوم من الكفار عمدوا إلى من عندهم من المؤمنين بالله عزّ وجلّ فقهروهم، وأرادوهم أن يرجعوا عن دينهم فأبوا عليهم، فحفروا لهم في الأرض أخدوداً، وأججوا فيه ناراً، وأعدوا لها وقوداً يسعرونها به، ثم أرادوهم فلم يقبلوا منهم، فقذفوهم فيها، ولهذا قال تعالى: ﴿قتل أصحاب الأخدود * النار ذات الوقود * إذ هم عليها قعود * وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود﴾ أي مشاهدون لما يفعل بأولئك المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿وما نقموا منهم إلاّ أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾ أي وما كان لهم عندهم ذنب إلاّ إيمانهم بالله ﴿العزيز﴾ الذي لا يضام من لاذ بجنابه، ﴿الحميد﴾ في جميع أقواله وأفعاله وشرعه وقدره، ثم قال تعالى: ﴿الذي له ملك السموات والأرض﴾ من تمام الصفة أنه المالك لجميع السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما، ﴿والله على كل شيء شهيد﴾ أي لا يغيب عنه شيء في جميع السماوات والأرض، ولا تخفى عليه خافية، وقد اختلف أهل التفسير في أهل هذه القصة من هم؟ فعن علي أنهم أهل فارس، حين أراد ملكهم تحليل تزويج المحارم فامتنع عليه علماؤهم، فعمد إلى حفر أخدود، فقذف فيه من أنكر عليه منهم، واستمر فيهم تحليل المحارم إلى اليوم. وعن ابن عباس قال: ناس من بني إسرائيل خدوا أخدوداً في الأرض، ثم أوقدوا فيه ناراً، ثم أقاموا على ذلك الأخدود رجالاً ونساء، فعرضوا عليها، وزعموا أنه دانيال وأصحابه، وقيل غير ذلك.

وقد روى الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب الرومي أن رسول الله ﷺ قال: «كان فيمن كان قبلكم ملك، وكان له ساحر، فلما كبر الساحر قال للملك: إني قد كبر سني وحضر أجلي، فادفع إليّ غلاماً لأعلمه السحر، فدفع إليه غلاماً كان يعلمه السحر، وكان بين الساحر وبين الملك راهب، فأتى الغلام على الراهب، فسمع من كلامه فأعجبه نحوه وكلامه، وكان إذا أتى الساحر ضربه، وقال: ما حبسك؟ وإذا أتى أهله ضربوه، وقالوا ما حبسك؟ فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا أراد الساحر أن يضربك فقل: حبسني أهلي، وإذا أراد أهلك أن يضربوك فقل: حبسني الساحر، قال: فبينما هو ذات يوم إذ أتى على دابة فظيعة عظيمة قد حبست الناس فلا يستطيعون أن يجوزوا، فقال: اليوم أعلم: أمر الراهب أحب إلى الله أم أمر الساحر؟ قال: فأخذ حجراً، فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك وأرضى من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يجوز الناس، ورماها فقتلها، ومضى الناس، فأخبر الراهب بذلك، فقال: أي بني أنت أفضل مني، وإنك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدلّ عليّ، فكان الغلام يبرىء الأكمه والأبرص وسائر الأدواء ويشفيهم، وكان للملك جليس، فعمي، فسمع به، فأتاه بهدايا كثرة فقال: اشفني ولك ما ههنا أجمع، فقال: ما أنا أشفي أحداً، إنما يشفي الله عزّ وجلّ، فإن آمنت به دعوت الله فشفاك، فآمن فدعا الله فشفاه، ثم أتى الملك فجلس منه نحو ما كان يجلس، فقال الملك: يا فلان من رد عليك بصرك؟ فقال: ربي، فقال: أنا! قال: لا، ربي وربك الله، قال: ولك رب غيري؟ قال: نعم، ربي وربك الله، فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام، فبعث إليه فقال: أي بني بلغ من سحرك أن تبرىء الأكمه والأبرص وهذه الأدواء؟ قال: ما أشفي أحداً إنما يشفي الله عزّ وجلّ. قال: أنا؟ قال: لا، قال: أولك رب غيري؟ قال: ربي وربك الله، فأخذه أيضاً بالعذاب، فلم يزل به حتى دل على الراهب، فأتى بالراهب، فقال: ارجع عن دينك، فأبى فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شقاه، وقال للأعمى: ارجع

(١) أخرجه ابن جرير.
(٢) حكاه البغوي.

عن دينك فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه، حتى وقع شقاه إلى الأرض، وقال للغلام: ارجع عن دينك فأبى، فبعث به مع نفر إلى جبل كذا وكذا، وقال: إذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلاّ فدهدهوه، فذهبوا به فلما علوا به الجبل قال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل، فدهدهوا أجمعون، وجاء الغلام يتلمس حتى دخل على الملك، فقال: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله تعالى. فبعث به مع نفر في قرقور، فقال: إذا لججتم به البحر، فإن رجع عن دينه وإلاّ فغرقوه في البحر، فلججوا به البحر، فقال الغلام: اللهم اكفنيهم بما شئت فغرقوا أجمعون، وجاء الغلام حتى دخل على الملك، فقال: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله تعالى، ثم قال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، فإن أنت فعلت ما آمرك به قتلتني، وإلاّ فإنك لا تستطيع قتلي، قال: وما هو، قال: تجمع الناس في صعيد واحد، ثم تصلبني على جذع، وتأخذ سهماً من كنانتي، ثم قل: باسم الله رب الغلام، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني، ففعل ووضع السهم في كبد قوسه، ثم رماه وقال: باسم الله رب الغلام، فوقع السهم في صدغه فوضع الغلام يده على موضع السهم، ومات، فقال الناس: آمنا برب الغلام. فقيل للملك: أرأيت ما كنت تحذر؟ فقد والله نزل بك؛ قد آمن الناس كلهم، فأمر بأفواه السكك فخدت فيها الأخاديد، وأضرمت فيها النيران، وقال: من رجع عن دينه فدعوه وإلاّ فأقحموه فيها، قال: فكانوا يتعادون فيها ويتدافعون، فجاءت امرأة بابن لها ترضعه، فكأنها تقاعست أن تقع في النار، فقال الصبي: اصبري يا أماه فإنك على الحق»[1].

وروى ابن أبي حاتم، عن الربيع بن أنس في قوله تعالى: ﴿قتل أصحاب الأخدود﴾ قال: سمعنا أنهم كانوا قوماً في زمان الفترة، فلما رأوا ما وقع في الناس من الفتنة والشر، وصاروا أحزاباً كل حزب بما لديهم فرحون، اعتزلوا إلى قرية سكنوها وأقاموا على عبادة الله مخلصين له الدين، فكان هذا أمرهم حتى سمع بهم جبار من الجبارين وحدث حديثهم فأرسل إليهم، فأمرهم أن يعبدوا الأوثان التي اتخذوا وأنهم أبوا عليه كلهم، وقالوا: لا نعبد إلاّ الله وحده لا شريك له، فقال لهم: إن لم تعبدوا هذه الآلهة التي عبدت فإني قاتلكم، فأبوا عليه، فخد أخدوداً من نار، وقال لهم الجبار بعد أن وقفهم عليها: اختاروا هذه أو الذي نحن فيه، فقالوا: هذه أحب إلينا وفيهم نساء وذرية، ففزعت الذرية، فقالوا لهم ـ أي آباؤهم ـ: لا نار من بعد اليوم، فوقعوا فيها، فقبضت أرواحهم من قبل أن يمسهم حرها، وخرجت النار من مكانها فأحاطت بالجبارين، فأحرقهم الله بها، ففي ذلك أنزل الله عزّ وجلّ: ﴿قتل أصحاب الأخدود * النار ذات الوقود * إذ هم عليها قعود * وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود * وما نقموا منهم إلاّ أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد * الذي له ملك السموات والأرض والله على كل شيء شهيد﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات﴾ أي حرقوا، قاله ابن عباس ومجاهد ﴿ثم لم يتوبوا﴾ أي لم يقلعوا عما فعلوا ويندموا على ما أسلفوا ﴿فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق﴾ وذلك أن الجزاء من جنس العمل، قال الحسن البصري: انظروا إلى هذا الكرم والجود قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾.

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين أن ﴿لهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ بخلاف ما أعد لأعدائه من الحريق والجحيم. ولهذا قال: ﴿ذلك الفوز الكبير﴾، ثم قال تعالى: ﴿إن بطش ربك لشديد﴾ أي إن بطشه

(١) أخرجه أحمد ورواه مسلم والنسائي بنحوه.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم، وروى محمد بن إسحاق قصة أصحاب الأخدود بسياق آخر وأنها كانت مع عبد الله بن التامر وأصحابه المؤمنين في نجران، والله أعلم.

وانتقامه من أعدائه، الذين كذبوا رسله وخالفوا أمره، لشديد عظيم قوي، فإنه تعالى ذو القوة المتين، ولهذا قال تعالى: ﴿إنه هو يبدىء ويعيد﴾ أي من قوته وقدرته التامة، يبدىء الخلق ويعيده كما بدأه بلا ممانع ولا مدافع ﴿وهو الغفور الودود﴾ أي يغفر ذنب من تاب إليه وخضع لديه، و﴿الودود﴾ قال ابن عباس: هو الحبيب ﴿ذو العرش﴾ أي صاحب العرش العظيم العالي على جميع الخلائق، و﴿المجيد﴾ فيه قراءتان: الرفع على أنه صفة للرب عزّ وجلّ، والجر على أنه صفة للعرش، وكلاهما معنى صحيح، ﴿فعال لما يريد﴾ أي مهما أراد فعله لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل لعظمته وقهره وعدله، كما روينا عن أبي بكر الصدّيق أنه قيل له وهو في مرض الموت: هل نظر إليك الطبيب؟ قال: نعم، قالوا: فما قال لك؟ قال: قال لي: إني فعال لما أريد، وقوله تعالى: ﴿هل أتاك حديث الجنود * فرعون وثمود﴾ أي هل بلغك ما أحل الله بهم من البأس، وأنزل عليهم من النقمة التي لم يردها عنهم أحد؟ وهذا تقرير لقوله تعالى: ﴿إن بطش ربك لشديد﴾ أي إذا أخذ الظالم أخذه أخذاً أليماً شديداً أخذ عزيز مقتدر، عن عمرو بن ميمون قال: مرّ النبي ﷺ على امرأة تقرأ: ﴿هل أتاك حديث الجنود﴾ فقام يستمع فقال: «نعم قد جاءني»[1]. وقوله تعالى: ﴿بل الذين كفروا في تكذيب﴾ أي هم في شك وريب وكفر وعناد، ﴿والله من ورائهم محيط﴾ أي هو قادر عليهم قاهر لا يفوتونه ولا يعجزونه، ﴿بل هو قرآن مجيد﴾ أي عظيم كريم، ﴿في لوح محفوظ﴾ أي هو في الملأ الأعلى، محفوظ من الزيادة والنقص، والتحريف والتبديل، روى ابن أبي حاتم عن عبد الرحمن بن سلمان قال: «ما من شيء قضى الله، القرآن فما قبله وما بعده، إلاّ وهو في اللوح المحفوظ، واللوح المحفوظ بين عيني إسرافيل لا يؤذن له بالنظر فيه»[2]. وقال الحسن البصري: إن هذا القرآن المجيد عند الله في لوح محفوظ، ينزل منه ما يشاء على من يشاء من خلقه، وقد روى البغوي عن ابن عباس قال: «إن في صدر اللوح: لا إله إلاّ الله وحده، دينه الإسلام، ومحمد عبده ورسوله، فمن آمن بالله وصدق بوعده واتبع رسله أدخله الجنة»[3]. وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى خلق لوحاً محفوظاً من درة بيضاء صفحاتها من ياقوتة حمراء، قلمه نور، وكتابه نور، لله فيه في كل يوم ستون وثلاثمائة لحظة، يخلق ويرزق ويميت ويحيي ويعز ويذل ويفعل ما يشاء»[4].

[آخر تفسير سورة البروج، ولله الحمد والمنة]

• • •

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم.
(٣) أخرجه البغوي.
(٤) أخرجه الطبراني.

٨٦ - سورة الطارق

مكية وآياتها سبع عشرة

روى النسائي عن جابر بن عبد الله قال: صلى معاذ المغرب فقرأ البقرة والنساء، فقال النبي ﷺ: «أفتان أنت يا معاذ؟ ما كان يكفيك أن تقرأ به«السماء والطارق»، ﴿والشمس وضحاها﴾ ونحوها؟»[1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝٢ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۝٧ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۝٩ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠﴾.

يقسم تبارك وتعالى بالسماء، وما جعل فيها من الكواكب النيرة، ولهذا قال تعالى: ﴿والسماء والطارق﴾، ثم قال: ﴿وما أدراك ما الطارق﴾، ثم فسّره بقوله: ﴿النجم الثاقب﴾، قال قتادة وغيره: إنما سمي النجم طارقاً لأنه إنما يرى بالليل ويختفي بالنهار، ويؤيده ما جاء في الحديث: «إلاّ طارقاً بخير يا رحمن». وقوله تعالى: ﴿الثاقب﴾ قال ابن عباس: المضيء، وقال السدي: يثقب الشياطين إذا أرسل عليها، وقال عكرمة: هو مضيء ومحرق للشيطان، وقوله تعالى: ﴿إن كل نفس لما عليها حافظ﴾ أي كل نفس عليها من الله حافظ يحرسها من الآفات، كما قال تعالى: ﴿له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله﴾، وقوله تعالى: ﴿فلينظر الإنسان مم خلق﴾ تنبيه للإنسان على ضعف أصله الذي خلق منه، وإرشاد له إلى الاعتراف بالمعاد، لأن من قدر على البداءة، فهو قادر على الإعادة بطريق الأولى، كما قال تعالى: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾، وقوله تعالى: ﴿خلق من ماء دافق﴾ يعني المني يخرج دفقاً من الرجل ومن المرأة، فيتولد منهما الولد بإذن الله عزّ وجلّ، ولهذا قال: ﴿يخرج من بين الصلب والترائب﴾ يعني صلب الرجل وترائب المرأة وهو (صدرها)، وقال ابن عباس: صلب الرجل وترائب المرأة أصفر رقيق لا يكون الولد إلاّ منهما، وعنه قال: هذه الترائب ووضع يده على صدره، وعن مجاهد: الترائب ما بين المنكبين إلى الصدر، وعنه أيضاً: الترائب أسفل من التراقي، وقال الثوري: فوق الثديين، وقال قتادة: ﴿يخرج من بين الصلب والترائب﴾ من بين صلبه ونحره، وقوله تعالى: ﴿إنه على رجعه لقادر﴾ فيه قولان: (أحدهما): على رجع هذا الماء الدافق إلى مقره الذي خرج منه لقادر على ذلك، قاله مجاهد وعكرمة وغيرهما، (الثاني): إنه على رجع هذا الإنسان المخلوق من ماء دافق، أي إعادته وبعثه إلى الدار الآخرة لقادر، قاله الضحاك واختاره ابن جرير، ولهذا قال تعالى: ﴿يوم تبلى السرائر﴾ أي يوم القيامة تبلى فيه السرائر أي تظهر وتبدو، ويبقى السر علانية والمكنون مشهوراً، وقوله تعالى: ﴿فما له﴾ أي الإنسان يوم القيامة ﴿من قوة﴾ أي في نفسه، ﴿ولا ناصر﴾ أي من خارج منه، أي لا يقدر على أن ينقذ نفسه من عذاب الله، ولا يستطيع له أحد ذلك.

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ۝١١ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ۝١٢ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ۝١٤ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ۝١٧﴾.

---

(١) أخرجه النسائي.

قال ابن عباس: الرجع المطر، وعنه: هو السحاب فيه المطر، وقال قتادة: ترجع رزق العباد كل عام، ولولا ذلك لهلكوا وهلكت مواشيهم، ﴿والأرض ذات الصدع﴾ قال ابن عباس: هو انصداعها عن النبات[1]، وقوله تعالى: ﴿إنه لقول فصل﴾ قال ابن عباس: حق، وقال غيره: حكم عدل، ﴿وما هو بالهزل﴾ أي بل هو جد حق. ثم أخبر عن الكافرين بأنهم يكذبون به، ويصدون عن سبيله فقال: ﴿إنهم يكيدون كيداً﴾ أي يمكرون بالناس، في دعوتهم إلى خلاف القرآن، ثم قال تعالى ﴿فمهل الكافرين﴾ أي أنظرهم ولا تستعجل لهم، ﴿أمهلهم رويداً﴾ أي قليلاً وسترى ماذا أحل بهم من العذاب والنكال والعقوبة والهلاك كما قال تعالى: ﴿نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ﴾.

[آخر تفسير سورة الطارق، ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) وهو قول ابن جرير وعكرمة والضحاك والحسن وقتادة والسدي وغيرهم.

obeikandl.com

٨٧ ـ سورة الأعلى

مكية وآياتها تسع عشرة

روى البخاري، عن البراء بن عازب قال: «أول من قدم علينا من أصحاب النبي ﷺ مصعب بن عمير وابن أم مكتوم، فجعلا يقرئاننا القرآن، ثم جاء عمار وبلال وسعد، ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين، ثم جاء النبي ﷺ فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به، حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون: هذا رسول الله ﷺ قد جاء حتى قرأت: ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ في سور مثلها»[1]. وروى مسلم وأهل السنن عن النعمان بن بشير أن النبي ﷺ كان يقرأ في العيدين ويوم الجمعة بـ ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ و﴿هل أتاك حديث الغاشية﴾، وربما اجتمعا في يوم واحد فقرأهما[2]، وقد روى الإمام أحمد عن عائشة أم المؤمنين أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في الوتر بـ ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾، و﴿قل يا أيها الكافرون﴾، و﴿قل هو الله أحد﴾، زادت عائشة: والمعوذتين[3].

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ۝٣ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ۝٤ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ۝٥ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى ۝٦ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى ۝٨ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ۝١١ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ۝١٣﴾.

عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأ: ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ قال: «سبحان ربي الأعلى»[4]. وقوله تعالى: ﴿الذي خلق فسوى﴾ أي خلق الخليقة وسوّى كل مخلوق في أحسن الهيئات، وقوله تعالى: ﴿والذي قدّر فهدى﴾ قال مجاهد: هدى الإنسان للشقاوة والسعادة، وهدى الأنعام لمراتعها، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وقال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ أي قدّر قدراً وهدى الخلائق إليه، كما ثبت في «صحيح مسلم»: «إن الله قدّر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء»[5]. وقوله تعالى: ﴿والذي أخرج المرعى﴾ أي من جميع صنوف النباتات والزروع، ﴿فجعله غثاء أحوى﴾ قال ابن عباس: هشيماً متغيراً، وقوله تعالى: ﴿سنقرئك﴾ أي يا محمد ﴿فلا تنسى﴾ وهذا إخبار من الله تعالى ووعد منه له، بأنه سيقرئه قراءة لا ينساها ﴿إلاّ ما شاء الله﴾ وهذا اختيار ابن جرير، وقال ابن قتادة: كان رسول الله ﷺ لا ينسى شيئاً إلاّ ما شاء الله، وقوله تعالى: ﴿إنه يعلم الجهر وما يخفى﴾ أي يعلم ما يجهر به العباد، وما يخفونه من أقوالهم وأفعالهم، لا يخفى عليه من ذلك شيء، وقوله تعالى: ﴿ونيسرك لليسرى﴾ أي نسهل عليك أفعال الخير، ونشرع لك شرعاً سهلاً سمحاً، لا اعوجاج فيه ولا حرج ولا عسر، وقوله تعالى: ﴿فذكّر إن نفعت الذكرى﴾ أي ذكّر حيث تنفع التذكرة، ومن ههنا يؤخذ الأدب في نشر العلم فلا يضعه عند غير أهله، كما قال علي رضي الله عنه: ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلاّ كان فتنة لبعضهم. وقال: حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذّب الله ورسوله؟ وقوله تعالى: ﴿سيذكّر من يخشى﴾ أي سيتعظ بما تبلغه يا محمد من قلبه يخشى الله ويعلم أنه ملاقيه، ﴿ويتجنبها الأشقى * الذي يصلى النار الكبرى * ثم لا يموت فيها ولا يحيى﴾ أي لا يموت فيستريح، ولا يحيى حياة تنفعه بل هي مضرة عليه، لأن بسببها يشعر ما يعاقب به من أليم العذاب وأنواع

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه.
(٢) أخرجه مسلم وأهل السنن.
(٣) أخرجه الإمام أحمد.
(٤) أخرجه أحمد وأبو داود.
(٥) أخرجه مسلم عن عبدالله بن عمرو مرفوعاً.

النكال، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ولكن أناس تصيبهم النار بذنوبهم ـ أو قال بخطاياهم ـ فيميتهم إماتة حتى إذا ما صاروا فحماً أذن في الشفاعة فجيء بهم ضبائر ضبائر، فبثوا على أنهار الجنة فيقال: يا أهل الجنة أفيضوا عليهم، فينبتون نبات الحبة في حميل السيل»[1]، ﴿ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون﴾، وقال تعالى: ﴿لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها﴾ إلى غير ذلك من الآيات في هذا المعنى.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿قد أفلح من تزكى﴾ أي طهر نفسه من الأخلاق الرذيلة، واتبع ما أنزل الله على الرسول صلوات الله وسلامه عليه، ﴿وذكر اسم ربه فصلى﴾ أي أقام الصلاة في أوقاتها ابتغاء رضوان الله وامتثالاً لشرع الله، روي عن جابر بن عبد الله يرفعه ﴿قد أفلح من تزكى﴾ قال: «من شهد أن لا إله إلاّ الله، وخلع الأنداد، وشهد أني رسول الله»، ﴿وذكر اسم ربه فصلى﴾ قال: «هي الصلوات الخمس والمحافظة عليها والاهتمام بها»[2]، وكذا قال ابن عباس إن المراد بذلك الصلوات الخمس، واختاره ابن جرير، وعن عمر بن عبد العزيز أنه كان يأمر الناس بإخراج صدقة الفطر، ويتلو هذه الآية: ﴿قد أفلح من تزكى * وذكر اسم ربه فصلى﴾، وقال قتادة في هذه الآية: ﴿قد أفلح من تزكى * وذكر اسم ربه فصلى﴾ زكى ماله وأرضى خالقه، ثم قال تعالى: ﴿بل تؤثرون الحياة الدنيا﴾ أي تقدمونها على أمر الآخرة، وتبذلونها على ما فيه نفعكم وصلاحكم في معاشكم ومعادكم، ﴿والآخرة خير وأبقى﴾ أي ثواب الله في الدار الآخرة، خير من الدنيا وأبقى، فإن الدنيا دانية فانية، والآخرة شريفة باقية، فكيف يؤثر عاقل ما يفنى على ما يبقى، ويهتم بما يزول عنه قريباً ويترك الاهتمام بدار البقاء والخلد؟ وقد قال رسول الله ﷺ: «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له»[3] عن عرفجة الثقفي قال: استقرأت ابن مسعود: ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ فلما بلغ ﴿بل تؤثرون الحياة الدنيا﴾ ترك القراءة وأقبل على أصحابه وقال: آثرنا الدنيا على الآخرة، فسكت القوم، فقال: آثرنا الدنيا لأنا رأينا زينتها ونساءها وطعامها وشرابها، وزويت عنا الآخرة، فاخترنا هذا العاجل وتركنا الآجل، وهذا منه على وجه التواضع والهضم، وفي الحديث: «من أحب دنياه أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى»[4]. وقوله تعالى: ﴿إن هذا لفي الصحف الأولى * صحف إبراهيم وموسى﴾ كقوله في سورة النجم: ﴿أم لم ينبأ بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفى * ألا تزر وازرة وزر أخرى * وأن ليس للإنسان إلاّ ما سعى * وأن سعيه سوف يرى * ثم يجزاه الجزاء الأوفى * وأن إلى ربك المنتهى﴾ الآيات إلى آخرهن؛ وهكذا قال عكرمة في قوله تعالى: ﴿إن هذا لفي الصحف الأولى * صحف إبراهيم وموسى﴾ يقول: الآيات التي في ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾، وقال أبو العالية: قصة هذه السورة في الصحف الأولى، واختار ابن جرير أن المراد بقوله: ﴿إن هذا﴾ إشارة إلى قوله: ﴿قد أفلح من تزكى * وذكر اسم ربه فصلى * بل تؤثرون الحياة الدنيا * والآخرة خير وأبقى﴾، ثم قال تعالى: ﴿إن هذا﴾ أي مضمون هذا الكلام ﴿لفي الصحف الأولى * صحف إبراهيم وموسى﴾ وهذا الذي اختاره حسن قوي، وقد روي عن قتادة وابن زيد نحوه، والله أعلم.

[آخر تفسير سورة سبح، ولله الحمد والمنة وبه التوفيق والعصمة]

---

(١) أخرجه أحمد ومسلم.

(٢) أخرجه الحافظ البزار.

(٣) أخرجه أحمد عن عائشة مرفوعاً.

(٤) أخرجه أحمد عن أبي موسى الأشعري مرفوعاً.

٨٨ ـ سورة الغاشية

مكية وآياتها ست وعشرون

عن النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بـ ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ والغاشية في صلاة العيد ويوم الجمعة[١].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ۝١ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ۝٥ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝٧﴾.

الغاشية من أسماء يوم القيامة، لأنها تغشى الناس وتعمهم، روي عن عمرو بن ميمون أنه قال: مرّ النبي ﷺ على امرأة تقرأ: ﴿هل أتاك حديث الغاشية﴾ فقام يستمع، ويقول: «نعم قد جاءني». وقوله تعالى: ﴿وجوه يومئذ خاشعة﴾ أي ذليلة، وقال ابن عباس: تخشع ولا ينفعها عملها، وقوله تعالى: ﴿عاملة ناصبة﴾ أي قد عملت عملاً كثيراً ونصبت فيه، وصليت يوم القيامة ناراً حامية، عن أبي عمران الجوني قال: مرّ عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه بدير راهب، قال: فناداه: يا راهب، فأشرف، قال: فجعل عمر ينظر إليه ويبكي، فقيل له: يا أمير المؤمنين ما يبكيك من هذا؟ قال: ذكرت قول الله عزّ وجلّ في كتابه: ﴿عاملة ناصبة * تصلى ناراً حامية﴾ فذاك الذي أبكاني، قال ابن عباس: ﴿عاملة ناصبة﴾ النصارى، وعن عكرمة والسدي: عاملة في الدنيا بالمعاصي، ناصبة في النار بالعذاب والإهلاك. قال ابن عباس: ﴿تصلى ناراً حامية﴾ أي حارة شديدة الحر، ﴿تسقى من عين آنية﴾ أي قد انتهى حرها وغليانها[٢]، وقوله تعالى: ﴿ليس لهم طعام إلا من ضريع﴾ قال ابن عباس: شجر من النار، وقال سعيد بن جبير: هو الزقوم، وعنه أنها الحجارة، وقال البخاري، قال مجاهد: الضريع نبت يقال له الشبرق يسميه أهل الحجاز الضريع إذا يبس، وهو سم، وقال قتادة: ﴿ليس لهم طعام إلا من ضريع﴾ من شر الطعام وأبشعه وأخبثه، وقوله تعالى: ﴿لا يسمن ولا يغني من جوع﴾ يعني لا يحصل به مقصود ولا يندفع به محذور.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ۝١١ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ۝١٦﴾.

لما ذكر حال الأشقياء ثنى بذكر السعداء فقال: ﴿وجوه يومئذ﴾ أي يوم القيامة، ﴿ناعمة﴾ أي يعرف النعيم فيها، وإنما حصل لها ذلك بسعيها، ﴿لسعيها راضية﴾ قد رضيت عملها، وقوله تعالى: ﴿في جنة عالية﴾ أي رفيعة بهية في الغرفات آمنون، ﴿لا تسمع فيها لاغية﴾ أي لا تسمع في الجنة التي هم فيها كلمة لغو، كما قال تعالى: ﴿لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً﴾، وقال تعالى: ﴿لا لغو فيها ولا تأثيم﴾، ﴿فيها عين جارية﴾ أي سارحة وليس المراد بها عيناً واحدة وإنما هذا جنس يعني فيها عيون جاريات، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أنهار الجنة تفجر من تحت تلال ـ أو من تحت جبال ـ المسك»[٣]، ﴿فيها سرر

---

(١) أخرجه مسلم وأصحاب السنن. (٢) وهو قول ابن عباس ومجاهد والحسن والسدي.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم.

مرفوعة﴾ أي عالية ناعمة، كثيرة الفرش مرتفعة السمك عليها الحور العين، فإذا أراد ولي الله أن يجلس على تلك السرر العالية تواضعت له، ﴿وأكواب موضوعة﴾ يعني أواني الشرب معدة مرصدة لمن أرادها، ﴿ونمارق مصفوفة﴾ قال ابن عباس: النمارق الوسائد[1]، وقوله تعالى: ﴿وزرابي مبثوثة﴾ قال ابن عباس: الزرابي البسط، ومعنى مبثوثة: أي ههنا وههنا لمن أراد الجلوس عليها، عن أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا هل من مشمر للجنة فإن الجنة لا خطر لها، هي ورب الكعبة نور يتلألأ، وريحانة تهتز، وقصر مشيد، ونهر مطرد، وثمرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحلل كثيرة، ومقام في أبد في دار سليمة، وفاكهة وخضرة، وحبرة ونعمة، في محلة عالية بهية»، قالوا: نعم يا رسول الله نحن المشمرون لها، قال: «قولوا: إن شاء الله» قال القوم إن شاء الله[2].

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾.

يقول تعالى آمراً عباده بالنظر في مخلوقاته الدالة على قدرته وعظمته: ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت﴾؟ فإنها خلق عجيب وتركيبها غريب، فإنها في غاية القوة والشدة، وهي مع ذلك تنقاد للقائد الضعيف، وتؤكل وينتفع بوبرها ويشرب لبنها، ونبهوا بذلك لأن العرب غالب دوابهم كانت الإبل، وكان شريح القاضي يقول: اخرجوا بنا حتى ننظر إلى الإبل كيف خلقت، وإلى السماء كيف رفعت! أي كيف رفعها الله عزّ وجلّ عن الأرض هذا الرفع العظيم، كما قال تعالى: ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج﴾، ﴿وإلى الجبال كيف نصبت﴾ أي جعلت منصوبة فإنها ثابتة راسية لئلا تميد الأرض بأهلها، وجعل فيها ما جعل من المنافع والمعادن، ﴿وإلى الأرض كيف سطحت﴾! أي كيف بسطت ومدت ومهدت، فنبه البدوي على الاستدلال بما يشاهده من بعيره الذي هو راكب عليه، والسماء التي فوق رأسه، والجبل الذي تجاهه، والأرض التي تحته، على قدرة خالق ذلك وصانعه، وأنه الرب العظيم الخالق المالك المتصرف، وأنه الإله الذي لا يستحق العبادة سواه، عن أنس قال: كنا نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن كل شيء، فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل فيسأله، ونحن نسمع، فجاء رجل من أهل البادية فقال: يا محمد إنا أتانا رسولك، فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك، قال: «صدق» قال: فمن خلق السماء؟ قال: «الله»، قال: فمن خلق الأرض؟ قال: «الله»، قال: فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل؟ قال: «الله»، قال: فبالذي خلق السماء والأرض ونصب هذه الجبال آلله أرسلك؟ قال: «نعم». قال: وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا؟ قال: «صدق»، قال: فبالذي أرسلك آلله أمرك بهذا، قال: «نعم»، قال: وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلاً؟ قال: «صدق»، قال: ثم ولى، فقال: والذي بعثك بالحق لا أزيد عليهن شيئاً ولا أنقص منهن شيئاً، فقال النبي ﷺ: «إن صدق ليدخلن الجنة»[3].

وقوله تعالى: ﴿فذكر إنما أنت مذكر * لست عليهم بمسيطر﴾ أي فذكر يا محمد الناس بما أرسلت به إليهم ﴿فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾، ولهذا قال: ﴿لست عليهم بمسيطر﴾؛ قال ابن عباس ومجاهد:

(١) وكذا قال عكرمة وقتادة والضحاك والسدي وغيرهم.

(٢) أخرجه ابن ماجة.

(٣) أخرجه مسلم وأصحاب السنن والإمام أحمد وجاء في بعض الروايات: «وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر».

لست عليهم بجبار، أي لست تخلق الإيمان في قلوبهم، وقال ابن زيد: لست بالذي تكرههم على الإيمان، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عزّ وجلّ»، ثم قرأ: ﴿فذكر إنما أنت مذكر * لست عليهم بمسيطر﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿إلا من تولى وكفر﴾ أي تولى عن العمل بأركانه، وكفر بالحق بجنانه ولسانه، وهذه كقوله تعالى: ﴿فلا صدق ولا صلى * ولكن كذب وتولى﴾، ولهذا قال: ﴿فيعذبه الله العذاب الأكبر﴾، روى الإمام أحمد: أن أبا أمامة الباهلي مرَّ على خالد بن يزيد بن معاوية، فسأله عن ألين كلمة سمعها من رسول الله ﷺ، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا كلكم يدخل الجنة إلا من شرد على الله شراد البعير عن أهله»[2]. وقوله تعالى: ﴿إن إلينا إيابهم﴾ أي مرجعهم ومنقلبهم، ﴿ثم إن علينا حسابهم﴾ أي نحن نحاسبهم على أعمالهم ونجازيهم بها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

[آخر تفسير سورة الغاشية، ولله الحمد والمنة]

(١) أخرجه أحمد ورواه مسلم والنسائي والترمذي.

(٢) تفرد بإخراجه الإمام أحمد.

obeikandl.com

٨٩ - سورة الفجر

مكية وآياتها ثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝٥ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝١٤﴾.

أمّا الفجر فمعروف وهو الصبح، وعن مسروق: المراد به فجر يوم النحر خاصة، وهو خاتمة الليالي العشر، وقيل: المراد بذلك الصلاة التي تفعل عنده، والليالي العشر المراد بها عشر ذي الحجة[١]، وقد ثبت في «صحيح البخاري»: «ما من أيام العمل الصالح أحب إلى الله فيهن من هذه الأيام» يعني عشر ذي الحجة، قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجُلاً خرج بنفسه وماله، ثم لم يرجع من ذلك بشيء»[٢]. وقيل: المراد بذلك العشر الأول من المحرم، عن ابن عباس: ﴿وليال عشر﴾ قال: هو العشر الأول من رمضان، والصحيح القول الأول. روي عن جابر يرفعه: «إن العشر عشر الأضحى، والوتر يوم عرفة، والشفع يوم النحر»[٣]. وقوله تعالى: ﴿والشفع والوتر﴾ الوتر يوم عرفة لكونه التاسع، والشفع يوم النحر لكونه العاشر، قاله ابن عباس. قول ثانٍ: عن واصل بن السائب قال: سألت عطاء عن قوله: ﴿والشفع والوتر﴾ قلت: صلاتنا وترنا هذا؟ قال: لا، ولكن الشفع يوم عرفة والوتر ليلة الأضحى. قول ثالث: عن أبي سعيد بن عوف قال: سمعت عبد الله بن الزبير يخطب الناس فقام إليه رجل، فقال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن الشفع والوتر؟ فقال: الشفع قول الله تعالى: ﴿فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه﴾، والوتر قوله تعالى: ﴿ومن تأخر فلا إثم عليه﴾[٤]. وفي الصحيحين: «إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر»[٥]. قول رابع: قال الحسن البصري: الخلق كلهم شفع ووتر، أقسم تعالى بخلقه[٦]، وقال ابن عباس: ﴿والشفع والوتر﴾ قال: الله وتر واحد، وأنتم شفع، ويقال: الشفع صلاة الغداة، والوتر صلاة المغرب. قول خامس: عن مجاهد ﴿والشفع والوتر﴾ قال: الشفع الزوج، والوتر الله عزّ وجلّ[٧]، وعنه: الله الوتر وخلقه الشفع الذكر والأنثى، وعنه: كل شيء خلقه الله شفع: السماء والأرض، والبر والبحر، والجن والإنس، والشمس والقمر، ونحو هذا، كقوله تعالى: ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾ أي لتعلموا أن خالق الأزواج واحد. قول سادس: قال الحسن: ﴿والشفع والوتر﴾ هو العدد منه شفع، ومنه وتر. قول سابع: قال أبو العالية والربيع بن أنس: هي الصلاة منها شفع

---

(١) وهو قول ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وغير واحد من السلف.

(٢) أخرجه البخاري عن ابن عباس مرفوعاً.

(٣) أخرجه أحمد والنسائي وابن أبي حاتم، قال ابن كثير: إسناد رجاله لا بأس بهم والمتن في رفعه نكارة.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٥) أخرجه الشيخان عن أبي هريرة مرفوعاً.

(٦) وهو رواية عن مجاهد.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم.

كالرباعية والثنائية، ومنها وتر كالمغرب، فإنها ثلاث، وهي وتر النهار، وكذلك صلاة الوتر في آخر التهجد من الليل، ولم يجزم ابن جرير بشيء من الأقوال في الشفع والوتر.

وقوله تعالى: ﴿والليل إذا يسر﴾ قال ابن عباس: أي إذا ذهب، وقال مجاهد وأبو العالية ﴿والليل إذا يسر﴾: إذا سار أي ذهب، ويحتمل إذا سار، أي أقبل، وهذا أنسب لأنه في مقابلة قوله: ﴿والفجر﴾ فإن الفجر هو إقبال النهار، وإدبار الليل، فإذا حمل قوله: ﴿والليل إذا يسر﴾ على إقباله كان قسماً بإقبال الليل وإدبار النهار وبالعكس. كقوله: ﴿والليل إذا عسعس * والصبح إذا تنفس﴾ وقال الضحاك: ﴿والليل إذا يسر﴾ أي يجري، وقال عكرمة: ﴿والليل إذا يسر﴾ يعني ليلة جمع ليلة المزدلفة، وقوله تعالى: ﴿هل في ذلك قسم لذي حجر﴾ أي لذي عقل ولب وحجى، وإنما سمي العقل (حجراً) لأنه يمنع الإنسان من تعاطي ما لا يليق به من الأفعال والأقوال، وحجر الحاكم على فلان إذا منعه التصرف، وهذا القسم هو بأوقات العبادة، وبنفس العبادة من حج وصلاة وغير ذلك من أنواع القرب التي يتقرب إليه عباده المتقون المطيعون له، الخائفون منه، المتواضعون لديه، الخاشعون لوجهه الكريم، ولما ذكر هؤلاء وعبادتهم وطاعتهم قال بعده: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد﴾؟ وهؤلاء كانوا متمردين عتاة جبارين، خارجين عن طاعته مكذبين لرسله، فذكر تعالى كيف أهلكهم ودمرهم وجعلهم أحاديث وعبراً، فقال: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد * إرم ذات العماد﴾؟ وهؤلاء (عاد الأولى) وهم الذين بعث الله فيهم رسوله هوداً عليه السلام فكذبوه وخالفوه، فأنجاه الله من بين أظهرهم ومن آمن معه منهم وأهلكهم ﴿بريح صرصر عاتية﴾، وقد ذكر الله قصتهم في القرآن، ليعتبر بمصرعهم المؤمنون، فقوله تعالى: ﴿إرم ذات العماد﴾ عطف بيان زيادة تعريف بهم، وقوله تعالى: ﴿ذات العماد﴾ لأنهم كانوا يسكنون بيوت الشعر التي ترفع بالأعمدة الشداد، وقد كانوا أشد الناس في زمانهم خلقة وأقواهم بطشاً، ولهذا ذكرهم (هود) بتلك النعمة، وأرشدهم إلى أن يستعملوها في طاعة ربهم الذي خلقهم فقال: ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾، وقال تعالى: ﴿فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة﴾، وقال ههنا: ﴿التي لم يخلق مثلها في البلاد﴾ أي القبيلة التي لم يخلق مثلها في بلادهم لقوتهم وشدتهم وعظم تركيبهم، وقال مجاهد: إرم أمة قديمة يعني عاداً الأولى، قال قتادة والسدي: إن إرم بيت مملكة عاد، وكانوا أهل عمد لا يقيمون، وقال ابن عباس: إنما قيل لهم ذات العماد لطولهم، واختار الأول ابن جرير، وقوله تعالى: ﴿التي لم يخلق مثلها في البلاد﴾ الضمير يعود على القبيلة، أي لم يخلق مثل تلك القبيلة في البلاد يعني في زمانهم، روي عن المقدام أنه ذكر ﴿إرم ذات العماد﴾ فقال: «كان الرجل منهم يأتي على الصخرة فيحملها على الحي فيهلكهم»[1]، وسواء كانت العماد أبنية بنوها، أو أعمدة بيوتهم للبدو، أو سلاحهم يقاتلون به، أو طول الواحد منهم، فهم قبيلة وأمة من الأمم، وهم المذكورون في القرآن في غير ما موضع، المقرونون بثمود كما ههنا، والله أعلم. ومن زعم أن المراد بقوله: ﴿إرم ذات العماد﴾ مدينة إما دمشق، أو اسكندرية أو غيرهما، فضعيف لأنه لا يتسق الكلام حينئذ، ثم المراد إنما هو الإخبار عن إهلاك القبيلة المسماة بعاد، وما أحل الله بهم من بأسه الذي لا يرد، لا أن المراد الإخبار عن مدينة أو إقليم، وقول ابن جرير: يحتمل أن يكون المراد بقوله: ﴿إرم ذات العماد﴾ قبيلة أو بلدة كانت عاد تسكنها فلذلك لم تصرف، فيه نظر، لأن المراد من السياق إنما هو الإخبار عن القبيلة، ولهذا قال بعده: ﴿وثمود الذين جابوا الصخر بالواد﴾ يعني يقطعون الصخر بالوادي، قال ابن عباس: ينحتونها ويخرقونها، يقال: اجتاب الثوب: إذا فتحه، وقال تعالى: ﴿وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين﴾، وقال ابن إسحاق: كانوا عرباً وكان منزلهم بوادي القرى، وقد ذكرنا قصة عاد مستقصاة في سورة الأعراف بما

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن المقدام مرفوعاً.

أغنى عن إعادته. وقوله تعالى: ﴿وفرعون ذي الأوتاد﴾ قال ابن عباس: الأوتاد الجنود الذين يشدون له أمره، ويقال: كان فرعون يوتد أيديهم وأرجلهم في أوتاد من حديد يعلقهم بها، وكذا قال مجاهد: كان يوتد الناس بالأوتاد، وقال السدي: كان يربط الرجل كل قائمة من قوائمه في وتد ثم يرسل عليه صخرة عظيمة فيشدخه، وقال ثابت البناني: قيل لفرعون ذي الأوتاد، لأنه ضرب لامرأته أربعة أوتاد، ثم جعل على ظهرها رحى عظيمة حتى ماتت، وقوله تعالى: ﴿الذين طغوا في البلاد * فأكثروا فيها الفساد﴾ أي تمردوا وعتوا وعاثوا في الأرض بالإفساد والأذية للناس، ﴿فصب عليهم ربك سوط عذاب﴾ أي أنزل عليهم رجزاً من السماء، وأحل بهم عقوبة لا يردها عن القوم المجرمين، وقوله تعالى: ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ قال ابن عباس: يسمع ويرى يعني يرصد خلقه فيما يعملون، ويجازي كلاً بسعيه في الدنيا والأخرى، وسيعرض الخلائق كلهم عليه فيحكم فيهم بعدله ويقابل كلاً بما يستحقه وهو المنزه عن الظلم والجور.

﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾.

يقول تعالى منكراً على الإنسان، إذا وسع الله تعالى عليه في الرزق ليختبره، فيعتقد أن ذلك من الله إكرام له، وليس كذلك بل هو ابتلاء وامتحان، كما قال تعالى: ﴿أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين * نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون﴾ وكذلك في الجانب الآخر إذا ابتلاه وامتحنه وضيق عليه في الرزق، يعتقد أن ذلك من الله إهانة له، قال الله تعالى: ﴿كلا﴾ أي ليس الأمر كما زعم لا في هذا ولا في هذا، فإن الله تعالى يعطي المال من يحب ومن لا يحب، ويضيق على من يحب ومن لا يحب، وإنما المدار في ذلك على طاعة الله في كل من الحالين، إذا كان غنياً بأن يشكر الله على ذلك، وإذا كان فقيراً بأن يصبر، وقوله تعالى: ﴿بل لا تكرمون اليتيم﴾ فيه أمر بالإكرام له كما جاء في الحديث: «خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه، وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه»(١). وقال ﷺ: «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة» وقرن بين أصبعيه الوسطى والتي تلي الإبهام(٢)، ﴿ولا تحاضون على طعام المسكين﴾ يعني لا يأمرون بالإحسان إلى الفقراء والمساكين ويحث بعضهم على بعض في ذلك ﴿وتأكلون التراث﴾ يعني الميراث ﴿أكلاً لمًّا﴾ أي من أي جهة حصل لهم من حلال أو حرام ﴿وتحبون المال حباً جماً﴾ أي كثيراً فاحشاً.

﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾.

يخبر تعالى عما يقع يوم القيامة من الأهوال العظيمة فقال تعالى: ﴿كلا﴾ أي حقاً ﴿إذا دكت الأرض دكاً دكاً﴾ أي وطئت ومهدت وسويت الأرض والجبال، وقام الخلائق من قبورهم لربهم ﴿وجاء ربك﴾ يعني لفصل القضاء بين خلقه، وذلك بعدما يستشفعون إليه بسيد ولد آدم على الإطلاق، محمد صلوات الله وسلامه عليه، فيجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء، والملائكة يجيئون بين يديه صفوفاً صفوفاً، وقوله تعالى: ﴿وجيء يومئذٍ بجهنم﴾ روى الإمام مسلم في «صحيحه»: عن عبد الله بن مسعود قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بجهنم يومئذٍ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها»(٣)، وقوله

(١) رُوي عن عبد الله بن المبارك.
(٢) أخرجه أبو داود.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه.

تعالى: ﴿يومئذٍ يتذكر الإنسان﴾ أي عمله وما كان أسلفه في قديم دهره وحديثه، ﴿وأنى له الذكرى﴾ أي وكيف تنفعه الذكرى، ﴿يقول يا ليتني قدمت لحياتي﴾ يعني يندم على ما كان سلف منه من المعاصي إن كان عاصياً، ويود لو كان ازداد من الطاعات إن كان طائعاً، كما قال الإمام أحمد بن حنبل عن جبير بن نفير عن محمد بن أبي عميرة، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ قال: لو أن عبداً خرّ على وجهه من يوم ولد إلى أن يموت في طاعة الله لحقره يوم القيامة، ولَوَدَّ أنه رد إلى الدنيا كيما يزداد من الأجر والثواب، وقال الله تعالى: ﴿فيومئذٍ لا يعذب عذابه أحد﴾ أي ليس أحد أشد عذاباً من تعذيب الله من عصاه، ﴿ولا يوثق وثاقه أحد﴾ أي وليس أحد أشد قبضاً ووثقاً من الزبانية لمن كفر بربهم عزّ وجلّ، وهذا في حق المجرمين من الخلائق والظالمين، فأما النفس الزكية المطمئنة وهي الساكنة الثابتة الدائرة مع الحق، فيقال لها: ﴿يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك﴾ أي إلى جواره وثوابه وما أعد لعباده في جنته ﴿راضية﴾ أي في نفسها، ﴿مرضية﴾ أي قد رضيت عن الله، ورضي عنها وأرضاها، ﴿فادخلي في عبادي﴾ أي في جملتهم، ﴿وادخلي جنتي﴾ وهذا يقال لها عند الاحتضار، وفي يوم القيامة أيضا، كما أن الملائكة يبشرون المؤمن عند احتضاره وعند قيامة من قبره فكذلك ههنا، ثم اختلف المفسرون فيمن نزلت هذه الآية، فروي أنها نزلت في عثمان بن عفان، وقيل: إنها نزلت في حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يا أيتها النفس المطمئنة * ارجعي إلى ربك راضية مرضية﴾ قال: نزلت وأبو بكر جالس فقال: يا رسول الله ما أحسن هذا! فقال: «أما إنه سيقال لك هذا»[1]. وروى الحافظ ابن عساكر، عن أمامة أن رسول الله ﷺ قال لرجل: «قل: اللهم إني أسألك نفساً بك مطمئنة، تؤمن بلقائك، وترضى بقضائك، وتقنع بعطائك»[2].

[آخر تفسير سورة الفجر، ولله الحمد والمنة]

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الحافظ ابن عساكر.

٩٠ - سورة البلد

مكية وآياتها عشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾.

هذا قسم من الله تبارك وتعالى بمكة (أم القرى) في حال كون الساكن فيها حلالاً، لينبّه على عظمة قدرها في حال إحرام أهلها، قال مجاهد: ﴿لا أقسم بهذا البلد﴾ لا، رد عليهم. أقسم بهذا البلد، وقال ابن عباس: ﴿لا أقسم بهذا البلد﴾ يعني مكة ﴿وأنت حِلٌّ بهذا البلد﴾ قال: أنت يا محمد يحل لك أن تقاتل به، وقال مجاهد: ما أصبت فيه فهو حلال لك، وقال الحسن البصري: أحلها الله له ساعة من نهار، وهذا المعنى قد ورد به الحديث المتفق على صحته: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شجره ولا يختلى خلاه، وإنما أحلت لي ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، ألا فليبلغ الشاهد الغائب»[1]. وفي لفظ آخر: «فإن أحد ترخّص بقتال رسول الله فقولوا: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم»، وقوله تعالى: ﴿ووالد وما ولد﴾ قال ابن عباس: الوالد الذي يلد ﴿وما ولد﴾ العاقر الذي لا يولد له، وقال مجاهد وقتادة والضحّاك: يعني بالوالد آدم ﴿وما ولد﴾ ولده، وهذا الذي ذهب إليه مجاهد وأصحابه حسن قوي، لأنه تعالى لما أقسم بأم القرى وهي المساكن، أقسم بعده بالساكن، وهو (آدم) أبو البشر وولده، واختار ابن جرير أنه عام في كل ولد وولده وهو محتمل أيضاً، وقوله تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾ روي عن ابن مسعود وابن عباس: يعني منتصباً، زاد ابن عباس: منتصباً في بطن أمه، والكبد: الاستواء والاستقامة، ومعنى هذا القول: لقد خلقناه سوياً مستقيماً، كقوله تعالى: ﴿الذي خلقك فسواك فعدلك * في أي صورة ما شاء ركبك﴾، وكقوله تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ وقال ابن عباس: ﴿في كبد﴾ في شدة خلق، ألم تر إليه وذكر مولده ونبات أسنانه، وقال مجاهد: ﴿في كبد﴾ نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، يكبد في الخلق، وهو كقوله تعالى: ﴿حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً﴾ فهو يكابد ذلك، وقال سعيد بن جبير: ﴿في كبد﴾ في شدة وطلب معيشة، وقال قتادة: في مشقة، وقال الحسن: يكابد أمراً من أمر الدنيا وأمراً من أمر الآخرة، وفي رواية: يكابد مضايق الدنيا وشدائد الآخرة، واختار ابن جرير أن المراد بذلك مكابدة الأمور ومشاقها.

وقال تعالى: ﴿أيحسب أن لن يقدر عليه أحد﴾ قال الحسن البصري: يعني يأخذ ماله، وقال قتادة: يظن أن لن يسأل عن هذا المال من أين اكتسبه وأين أنفقه، وقال السدي: ﴿أيحسب أن لن يقدر عليه أحد﴾ قال الله عزّ وجلّ يظن أن لن يقدر عليه ربه، وقوله تعالى: ﴿يقول أهلكت مالاً لبداً﴾ أي يقول ابن آدم: أنفقت ﴿مالاً لبداً﴾ أي كثيراً قاله مجاهد والحسن، ﴿أيحسب أن لم يره أحد﴾ قال مجاهد: أي أيحسب أن

---

(١) أخرجه الشيخان وأصحاب السنن.

لم يره الله عزّ وجلّ، وكذا قال غيره من السلف، وقوله تعالى: ﴿ألم نجعل له عينين﴾ أي يبصر بهما ﴿ولساناً﴾ أي ينطق به فيعبر عما في ضميره ﴿وشفتين﴾ يستعين بهما على الكلام، وأكل الطعام، وجمالاً لوجهه وفمه. وقد روى الحافظ ابن عساكر عن مكحول قال: قال النبي ﷺ: «يقول الله تعالى: يا ابن آدم، قد أنعمت عليك نعماً عظاماً، لا تحصي عددها ولا تطيق شكرها، وإن مما أنعمت عليك أن جعلت لك عينين تنظر بهما، وجعلت لهما غطاء، فانظر بعينيك إلى ما أحللت لك، وإن رأيت ما حرمت عليك، فأطبق عليهما غطاءهما، وجعلت لك لساناً وجعلت له غلافاً، فانطق بما أمرتك، وأحللت لك فإن عرض عليك ما حرمت عليك فأغلق عليك لسانك، وجعلت لك فرجاً وجعلت لك ستراً، فأصب بفرجك ما أحللت لك، فإن عرض عليك ما حرمت عليك فأرخ عليك سترك، يا ابن آدم إنك لا تحمل سخطي ولا تطيق انتقامي»[1]، ﴿وهديناه النجدين﴾: الطريقين، قال ابن مسعود: الخير والشر، وعن أبي رجاء قال: سمعت الحسن يقول: ﴿وهديناه النجدين﴾ قال: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «يا أيها الناس إنهما النجدان: نجد الخير، ونجد الشر، فما جعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير»[2]، وقال ابن عباس: ﴿وهديناه النجدين﴾ قال: الثديين، قال ابن جرير: والصواب القول الأول، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً﴾.

﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ ﴿٢٠﴾﴾.

روى ابن جرير عن ابن عمر في قوله تعالى: ﴿فلا اقتحم﴾ أي دخل ﴿العقبة﴾ قال: جبل في جهنم، وقال كعب الأحبار: هو سبعون درجة في جهنم، وقال الحسن البصري: عقبة في جهنم، وقال قتادة: إنها عقبة قحمة شديدة فاقتحموها بطاعة الله تعالى: ﴿وما أدراك ما العقبة﴾؟ ثم أخبر تعالى عن اقتحامها فقال: ﴿فك رقبة * أو إطعام﴾، وقال ابن زيد: ﴿فلا اقتحم العقبة﴾ أي أفلا سلك الطريق التي فيها النجاة والخير، ثم بينها فقال تعالى: ﴿وما أدراك ما العقبة * فك رقبة﴾، عن سعيد بن مرجانة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل إرب ـ أو عضو ـ منها إرباً منه من النار حتى إنه ليعتق باليد اليد، وبالرجل الرجل، وبالفرج الفرج»، فقال علي بن الحسين: أنت سمعت هذا من أبي هريرة؟ فقال سعيد: نعم، فقال علي بن الحسين لغلام له أفره غلمانه، ادع مطرفاً، فلما قام بين يديه، قال: اذهب فأنت حر لوجه الله»[3]. وعند مسلم أن هذا الغلام الذي أعتقه علي بن الحسين زين العابدين كان قد أعطي فيه عشرة آلاف درهم، وعن عمرو بن عبسة أن النبي ﷺ قال: «من بنى مسجداً ليذكر الله فيه بنى الله له بيتاً في الجنة، ومن أعتق نفساً مسلمة كانت فديته من جهنم، ومن شاب شيبة في الإسلام كانت له نوراً يوم القيامة»[4]. وفي الحديث: «من ولد له ثلاثة أولاد في الإسلام فماتوا قبل أن يبلغوا الحنث أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم، ومن شاب شيبة في سبيل الله كانت له نوراً يوم القيامة، ومن رمى بسهم في سبيل الله بلغ به العدو أصاب أو أخطأ كان له عتق رقبة، ومن أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منه عضواً منه من النار، ومن أعتق زوجين في سبيل الله فإن للجنة ثمانية أبواب يدخله الله من أي باب شاء منها»[5]. وهذه

(١) أخرجه الحافظ ابن عساكر في ترجمة أبي الربيع الدمشقي.
(٢) أخرجه ابن جرير عن الحسن مرسلاً.
(٣) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي والإمام أحمد.
(٤) أخرجه أحمد.
(٥) أخرجه أحمد أيضاً.

أسانيد جيدة قوية ولله الحمد.

وقوله تعالى: ﴿أو إطعام في يوم ذي مسغبة﴾ قال ابن عباس: ذي مجاعة[١]، والسغب: هو الجوع، وقال النخعي: في يوم الطعامُ فيه عزيز، وقال قتادة: في يوم مشتهى فيه الطعام، وقوله تعالى: ﴿يتيماً﴾ أي أطعم في مثل هذا اليوم يتيماً ﴿ذا مقربة﴾ أي ذا قرابة منه، كما جاء في الحديث الصحيح: «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم اثنتان صدقة وصلة»[٢]. وقوله تعالى: ﴿أو مسكيناً ذا متربة﴾ أي فقيراً مدقعاً لاصقاً بالتراب، وهو الدقعاء أيضاً، قال ابن عباس: ذا متربة هو المطروح في الطريق، الذي لا بيت له ولا شيء يقيه من التراب، وفي رواية: هو الذي لصق بالدقعاء من الفقر والحاجة ليس له شيء، وقال عكرمة: هو الفقير المدين المحتاج، وقال سعيد بن جبير: هو الذي لا أحد له، وقال قتادة: هو ذو العيال، وكل هذه قريبة المعنى، وقوله تعالى: ﴿ثم كان من الذين آمنوا﴾ أي ثم هو مع هذه الأوصاف الجميلة الطاهرة مؤمن بقلبه، محتسب ثواب ذلك عند الله عزّ وجلّ، كما قال تعالى: ﴿ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً﴾، وقوله تعالى: ﴿وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة﴾ أي كان من المؤمنين العاملين صالحاً، المتواصين بالصبر على أذى الناس، وعلى الرحمة بهم، كما جاء في الحديث: «الراحمون يرحمهم الرحمٰن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء». وعن عبد الله بن عمرو يرويه قال: «من لم يرحم صغيرنا ويعرف حق كبيرنا فليس منا»[٣]، وقوله تعالى: ﴿أولئك أصحاب الميمنة﴾ أي المتصفون بهذه الصفات من أصحاب اليمين، ثم قال: ﴿والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة﴾ أي أصحاب الشمال، ﴿عليهم نار مؤصدة﴾ أي مطبقة عليهم فلا سبيل لهم عنها، ولا خروج لهم منها، قال أبو هريرة ﴿مؤصدة﴾ أي مطبقة، وقال ابن عباس: مغلقة الأبواب، وقال مجاهد: أصد الباب أي أغلقه، وقال الضحاك ﴿مؤصدة﴾ حيط لا باب له، وقال قتادة: ﴿مؤصدة﴾: مطبقة فلا ضوء فيها ولا فرج ولا خروج منها آخر الأبد، وقال أبو عمران الجوني: إذا كان يوم القيامة أمر الله بكل جبار وكل شيطان، وكل من كان يخاف الناس في الدنيا شره، فأوثقوا بالحديد، ثم أمر بهم إلى جهنم ثم أوصدوها عليهم أي أطبقوها، قال: فلا والله لا تستقر أقدامهم على قرار أبداً، ولا والله لا ينظرون فيها إلى أديم سماء أبداً، ولا والله لا تلتقي جفون أعينهم على غمض نوم أبداً، ولا والله لا يذوقون فيها بارد شراب أبداً[٤].

[آخر تفسير سورة البلد، ولله الحمد والمنة]

---

(١) وكذا قال عكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة وغيرهم.

(٢) أخرجه أحمد ورواه الترمذي والنسائي وإسناده صحيح.

(٣) أخرجه أبو داود.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم.

٩١ - سورة الشمس

مكية وآياتها خمس عشرة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۝٢ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝٤ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۝٥ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝١٠﴾.

قال مجاهد ﴿والشمس وضحاها﴾: أي وضوئها، وقال قتادة: ﴿وضحاها﴾ النهار كله. قال ابن جرير: والصواب أن يقال: أقسم الله بالشمس ونهارها، لأن ضوء الشمس الظاهر هو النهار، ﴿والقمر إذا تلاها﴾ قال مجاهد: تبعها، وقال ابن عباس: ﴿والقمر إذا تلاها﴾ قال: يتلو النهار، وقال قتادة: إذا تلاها ليلة الهلال إذا سقطت الشمس رؤي الهلال. وقال ابن زيد: هو يتلوها في النصف الأول من الشهر، ثم هي تتلوه وهو يتقدمها في النصف الأخير من الشهر، وقوله تعالى: ﴿والنهار إذا جلاها﴾ قال مجاهد: أضاءها، وقال قتادة: إذا غشيها النهار، وتأول بعضهم ذلك بمعنى: والنهار إذا جلا الظلمة لدلالة الكلام عليها[1]. قلت: ولو أن القائل تأول ذلك بمعنى ﴿والنهار إذا جلاها﴾ أي البسيطة لكان أولى، ولصح تأويله في قوله تعالى: ﴿والليل إذا يغشاها﴾ فكان أجود وأقوى، والله أعلم. ولهذا قال مجاهد: ﴿والنهار إذا جلاها﴾ إنه كقوله تعالى: ﴿والنهار إذا تجلى﴾، وأما ابن جرير فاختار عود الضمير ذلك كله على الشمس لجريان ذكرها، وقالوا في قوله تعالى: ﴿والليل إذا يغشاها﴾ يعني إذا يغشى الشمس حين تغيب فتظلم الآفاق. وقال بقية: إذا جاء الليل قال الرب جلّ جلاله: غشي عبادي خلقي العظيم، فالليل يهابه، والذي خلقه أحق أن يهاب[2]. وقوله تعالى: ﴿والسماء وما بناها﴾ يحتمل أن تكون «ما» ههنا مصدرية بمعنى: والسماء وبنائها، وهو قول قتادة، ويحتمل أن تكون بمعنى «من» يعني: والسماء وبانيها، وهو قول مجاهد، وكلاهما متلازم والبناء هو الرفع كقوله تعالى: ﴿والسماء بنيناها بأيد﴾ أي بقوة ﴿وإنا لموسعون﴾، وقوله تعالى: ﴿والأرض وما طحاها﴾ قال مجاهد: ﴿طحاها﴾ دحاها، وقال ابن عباس: أي خلق فيها، وقال مجاهد وقتادة والضحاك: ﴿طحاها﴾ بسطها، وهذا أشهر الأقوال، وعليه الأكثر من المفسرين وهو المعروف عند أهل اللغة، قال الجوهري: طحوته مثل دحوته أي بسطته، وقوله تعالى: ﴿ونفس وما سواها﴾ أي خلقها سوية مستقيمة على الفطرة القويمة كما قال تعالى: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله﴾، وقال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة». وفي «صحيح مسلم»: «يقول الله عزّ وجلّ: إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم». وقوله تعالى: ﴿فألهمها فجورها وتقواها﴾ أي فأرشدها إلى فجورها وتقواها أي بين ذلك لها وهداها إلى ما قدر لها، قال ابن عباس: بيّن لها الخير والشر، وقال سعيد بن جبير: ألهمها الخير والشر، وقال ابن زيد: جعل فيها فجورها وتقواها. وفي الحديث: أن رجلاً من مزينة أو جهينة أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناس فيه ويتكادحون، أشيء

---

(١) ذكره ابن جرير عن بعض أهل اللغة.

(٢) رواه ابن أبي حاتم.

قضي عليهم من قدر قد سبق، أم شيء مما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم ﷺ وأكدت به عليهم الحجة؟ قال: «بل شيء قد قضي عليهم»، قال: ففيم نعمل؟ قال: «من كان الله خلقه لإحدى المنزلتين يهيئه لها، وتصديق ذلك في كتاب الله تعالى: ﴿ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها﴾»[1].

وقوله تعالى: ﴿قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها﴾ المعنى قد أفلح من زكى نفسه بطاعة الله، وطهرها من الأخلاق الدنيئة والرذائل، كقوله: ﴿قد أفلح من تزكى * وذكر اسم ربه فصلى﴾ ﴿وقد خاب من دساها﴾ أي دسسها أي أخملها حتى ركب المعاصي وترك طاعة الله عزّ وجلّ، وقد يحتمل أن يكون المعنى: قد أفلح من زكى نفسه، وقد خاب من دسّى الله نفسه، كما قال ابن عباس[2]، وروى ابن أبي حاتم، عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿فألهمها فجورها وتقواها﴾ قال: «اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها»[3]، وفي رواية عن عائشة أنها فقدت النبي ﷺ من مضجعه، فلمسته بيدها فوقعت عليه وهو ساجد، وهو يقول: «رب أعط نفسي تقواها، وزكّها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها»[4]. حديث آخر: روى الإمام أحمد، عن زيد بن أرقم قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والهرم والجبن والبخل وعذاب القبر، اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، وعلم لا ينفع، ودعوة لا يستجاب لها»[5]. قال زيد: كان رسول الله ﷺ يعلمناهن ونحن نعلمكموهن.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾.

يخبر تعالى عن ثمود أنهم كذبوا رسولهم، بسبب ما كانوا عليه من الطغيان والبغي، فأعقبهم ذلك تكذيباً في قلوبهم بما جاءهم به رسولهم عليه الصلاة والسلام من الهدى واليقين ﴿إذ انبعث أشقاها﴾ أي أشقى القبيلة وهو (قدار بن سالف) عاقر الناقة، وهو الذي قال الله تعالى: ﴿فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر﴾ الآية، وكان هذا الرجل عزيزاً شريفاً في قومه، نسيباً رئيساً مطاعاً، كما قال الإمام أحمد: خطب رسول الله ﷺ فذكر الناقة، وذكر الذي عقرها، فقال: «﴿إذ انبعث أشقاها﴾ انبعث لها رجل عارم عزيز منيع في رهطه مثل أبي زمعة»[6]. وروى ابن أبي حاتم، عن عمار بن ياسر قال: قال رسول الله ﷺ لعلي: «ألا أحدثك بأشقى الناس؟» قال: بلى، قال: «رجلان أحيمر ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضربك يا علي على هذا - يعني قرنه - حتى تبتل منه هذه» يعني لحيته[7]. وقوله تعالى: ﴿فقال لهم رسول الله﴾ يعني صالحاً عليه السلام ﴿ناقة الله﴾ أي احذروا ناقة الله أن تمسوها بسوء، ﴿وسقياها﴾ أي لا تعتدوا عليها في سقياها فإن لها شرب يوم، ولكم شرب يوم معلوم، قال الله تعالى: ﴿فكذبوه فعقروها﴾ أي كذبوه فيما جاءهم به، فأعقبهم ذلك أن عقروا الناقة، التي أخرجها الله من الصخرة آية لهم وحجة عليهم، ﴿فدمدم عليهم ربهم بذنبهم﴾ أي غضب عليهم فدمّر عليهم، ﴿فسواها﴾ أي فجعل العقوبة نازلة عليهم على السواء. قال قتادة: بلغنا أن أحيمر ثمود لم يعقر الناقة حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وأنثاهم، فلما اشترك القوم في عقرها دمدم الله

---

(١) رواه أحمد ومسلم.

(٢) هذا القول عن ابن عباس ورد به حديث مرفوع: «أفلحت نفس زكّاها الله عزّ وجلّ» أخرجه ابن أبي حاتم ولكن في إسناده ضعف.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه أحمد.

(٥) أخرجه أحمد ومسلم.

(٦) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي من حديث عبد الله بن زمعة.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم.

عليهم بذنبهم فسواها، وقوله تعالى: ﴿ولا يخاف عقباها﴾ قال ابن عباس: لا يخاف الله من أحد تبعة[١]، وقال الضحاك والسدي: ﴿ولا يخاف عقباها﴾ أي لم يخف الذي عقرها عاقبة ما صنع، والقول الأول أولى لدلالة السياق عليه، والله أعلم.

[آخر تفسير سورة والشمس وضحاها ولله الحمد والمنة]

* * *

٩٢ ـ سورة الليل

مكية وآياتها إحدى وعشرون

تقدم قوله عليه الصلاة والسلام لمعاذ: «فهلا صليت بـ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾، ﴿والشمس وضحاها﴾، ﴿والليل إذا يغشى﴾».

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١﴾.

أقسم تعالى بالليل ﴿إذا يغشى﴾ أي إذا غشي الخليقة بظلامه، ﴿والنهار إذا تجلى﴾ أي بضيائه وإشراقه، ﴿وما خلق الذكر والأنثى﴾ كقوله تعالى: ﴿وخلقناكم أزواجاً﴾، ﴿إن سعيكم لشتى﴾ أي أعمال العباد التي اكتسبوها متضادة ومتخالفة، فمن فاعل خيراً ومن فاعل شراً، قال الله تعالى: ﴿فأما من أعطى واتقى﴾ أي أعطى ما أمر بإخراجه، واتقى الله في أموره، ﴿وصدق بالحسنى﴾ بالمجازاة على ذلك أي بالثواب. وقال ابن عباس، ومجاهد: ﴿وصدق بالحسنى﴾ أي بالخَلَف، وقال الضحاك: بلا إله إلاّ الله، وقال أُبيّ بن كعب: سألت رسول الله ﷺ عن الحسنى قال: «الحسنى: الجنة»[٢]. وقوله تعالى: ﴿فسنيسره لليسرى﴾ قال ابن عباس: يعني للخير، وقال زيد بن أسلم: يعني للجنة، ﴿وأما من بخل﴾ أي بما عنده ﴿واستغنى﴾ قال ابن عباس: أي بخل بماله واستغنى عن ربه عزّ وجلّ، ﴿وكذب بالحسنى﴾ أي بالجزاء في الدار الآخرة ﴿فسنيسره للعسرى﴾ أي لطريق الشر، كما قال تعالى ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾، والآيات في هذا المعنى كثيرة دالة على أن الله عزّ وجلّ يجازي من قصد الخير بالتوفيق له، ومن قصد الشر بالخذلان، وكل ذلك بقدر مقدر، والأحاديث الدالة على هذا المعنى كثيرة. روى البخاري عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في بقيع الغرقد في جنازة فقال: «ما منكم من أحد إلاّ وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار». فقالوا: يا رسول الله أفلا نتكل؟ فقال: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له»، ثم قرأ: ﴿فأما من أعطى واتقى * وصدق بالحسنى * فسنيسره لليسرى﴾ إلى قوله: ﴿للعسرى﴾[٣]، وفي رواية أُخرى عن علي بن أبي طالب

(١) وكذا قال مجاهد والحسن وبكر المزني وغيرهم.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم.
(٣) أخرجه البخاري.

رضي الله عنه قال: كنا في جنازة في بقيع الغرقد، فأتى رسول الله ﷺ فقعد وقعدنا حوله ومعه مخصرة فنكس، فجعل ينكت بمخصرته، ثم قال: «ما منكم من أحد ـ أو ما من نفس منفوسة ـ إلاّ كتب مكانها من الجنة والنار، وإلاّ قد كتبت شقية أو سعيدة»، فقال رجل: يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ فمن كان منا من أهل السعادة فسيصير إلى أهل السعادة، ومن كان منا من أهل الشقاء فسيصير إلى أهل الشقاء؟ فقال: «أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاء فييسرون إلى عمل أهل الشقاء»، ثم قرأ: ﴿فأما من أعطى واتقى * وصدق بالحسنى * فسنيسره لليسرى * وأما من بخل واستغنى * وكذب بالحسنى * فسنيسره للعسرى﴾[1]. وعن جابر بن عبد الله أنه قال: يا رسول الله أنعمل لأمر قد فرغ منه أو لأمر نستأنفه؟ فقال: «الأمر قد فرغ منه» فقال سراقة: ففيم العمل إذاً؟ فقال رسول الله ﷺ: «كل عامل ميسر لعمله»[2]. وفي الحديث: «ما من يوم غربت فيه شمسه إلاّ وبجنبتيها ملكان يناديان يسمعهما خلق الله كلهم إلاّ الثقلين: اللهم أعط منفقاً خلفاً وأعط ممسكاً تلفاً» وأنزل الله في ذلك القرآن: ﴿فأما من أعطى واتقى * وصدق بالحسنى * فسنيسره لليسرى * وأما من بخل واستغنى * وكذب بالحسنى * فسنيسره للعسرى﴾[3]. وذكر أن هذه الآية نزلت في (أبي بكر الصديق) رضي الله عنه كان يعتق على الإسلام بمكة، فكان يعتق عجائز ونساء إذا أسلمن، فقال له أبوه: أي بني أراك تعتق أناساً ضعفاء، فلو أنك تعتق رجالاً جلداء يقومون معك، ويمنعونك ويدفعون عنك، فقال: أي أبت إنما أريد ما عند الله، فنزلت الآية: ﴿فأما من أعطى واتقى * وصدق بالحسنى * فسنيسره لليسرى﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿وما يغني عنه ماله إذا تردى﴾ قال مجاهد: أي إذا مات، وقال زيد بن أسلم: إذا تردى في النار.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾.

قال قتادة ﴿إن علينا للهدى﴾: أي نبين الحلال والحرام، وقال غيره: من سلك طريق الهدى وصل إلى الله، وجعله كقوله تعالى: ﴿وعلى الله قصد السبيل﴾، وقوله تعالى: ﴿وإن لنا للآخرة والأولى﴾ أي الجميع ملكنا وأنا المتصرف فيهما، وقوله تعالى: ﴿فأنذرتكم ناراً تلظى﴾ قال مجاهد: أي توهج، وفي الحديث: «إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة رجل توضع في أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه» أخرجه البخاري. وفي رواية لمسلم: «إن أهون أهل النار عذاباً من له نعلان وشراكان من نار يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل ما يرى أن أحداً أشد منه عذاباً وإنه لأهونهم عذاباً»[5]، وقوله تعالى: ﴿لا يصلاها إلاّ الأشقى﴾ أي لا يدخلها إلاّ الأشقى، ثم فسره فقال: ﴿الذي كذب﴾ أي بقلبه ﴿وتولى﴾ أي عن العمل بجوارحه وأركانه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل النار إلاّ شقي»، قيل: ومن الشقي؟ قال: «الذي لا يعمل بطاعة، ولا يترك لله معصية»[6]. وقال رسول الله ﷺ: «كل أمتي تدخل الجنة يوم القيامة إلاّ من أبى»، قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى»[7]، وقوله تعالى: ﴿وسيجنبها الأتقى﴾ أي وسيزحزح عن النار التقي النقي الأتقى، ثم فسره بقوله: ﴿الذي يؤتي ماله يتزكى﴾ أي يصرف ماله في طاعة ربه ليزكي نفسه ﴿وما لأحد عنده من نعمة تجزى﴾ أي ليس بذله في مكافأة

(١) أخرجه البخاري وبقية الجماعة.
(٢) رواه مسلم وابن جرير.
(٣) رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.
(٤) أخرجه ابن جرير.
(٥) أخرجه مسلم عن النعمان بن بشير.
(٦) أخرجه الإمام أحمد.
(٧) أخرجه البخاري وأحمد عن أبي هريرة.

من أسدى إليه معروفاً، وإنما دفعه ذلك ﴿ابتغاء وجه ربه الأعلى﴾ أي طمعاً في أن يحصل له رؤيته في الدار الآخرة في روضات الجنات، قال الله تعالى: ﴿ولسوف يرضى﴾ أي ولسوف يرضى من اتصف بهذه الصفات. وقد ذكر المفسرون أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، حتى إن بعضهم حكى الإجماع على ذلك، ولا شك أنه داخل فيها وأولى الأمة بعمومها فإنه كان صدّيقاً تقياً، كريماً جواداً، بذالاً لأمواله في طاعة مولاه، ونصرة رسول الله ﷺ وكان فضله وإحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل، ولهذا قال له (عروة بن مسعود) وهو سيد ثقيف يوم صلح الحديبية: أما والله لولا يدٌ لك عندي لم أجزك بها لأجبتك، وكان الصدّيق قد أغلظ له في المقالة، فإذا كان هذا حاله مع سادات العرب ورؤساء القبائل فكيف بمن عداهم؟ ولهذا قال تعالى: ﴿وما لأحد عنده من نعمة تجزى * إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى * ولسوف يرضى﴾. وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «من أعتق زوجين في سبيل الله، دعته خزنة الجنة يا عبد الله هذا خير»، فقال أبو بكر: يا رسول الله ما على من يدعى منها ضرورة، فهل يدعى منها كلها أحد؟ قال: «نعم وأرجو أن تكون منهم»[1].

[آخر تفسير سورة الليل، ولله الحمد والمنة]

* * *

٩٣ ـ سورة الضحى

مكية وآياتها إحدى عشرة

يستحب التكبير من آخر الضحى لآخر سورة الناس، وقد ذكر القراء أن ذلك سنة مأثورة وذكروا في مناسبة التكبير من أول (سورة الضحى) أنه لما تأخر الوحي عن رسول الله ﷺ وفتر تلك المدة ثم جاء الملك فأوحى إليه: ﴿والضحى * والليل إذا سجى﴾ السورة بتمامها كبّر فرحاً وسروراً[2].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾.

روى الإمام أحمد، عن جندب بن عبد الله قال: اشتكى النبي ﷺ فلم يقم ليلة أو ليلتين، فأتت امرأة فقالت: يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿والضحى * والليل إذا سجى * ما ودعك ربك وما قلى﴾[3]. وفي رواية: أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ فقال المشركون: ودع محمداً ربه، فأنزل الله تعالى: ﴿والضحى * والليل إذا سجى * ما ودعك ربك وما قلى﴾، وهذا قسم منه تعالى بالضحى وما جعل فيه من الضياء ﴿والليل إذا سجى﴾ أي سكن فأظلم وادلهم، وذلك دليل ظاهر على قدرته تعالى، كما قال تعالى: ﴿والليل إذا يغشى * والنهار إذا تجلى﴾، وقال تعالى: ﴿فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم﴾، وقوله تعالى: ﴿ما ودعك ربك﴾ أي ما تركك ﴿وما

---

(١) أخرجه الشيخان.

(٢) قال ابن كثير: لم يرو ذلك بإسناد يحكم عليه بصحة ولا ضعف فالله أعلم.

(٣) أخرجه الشيخان والترمذي والنسائي.

قلى﴾ أي وما أبغضك، ﴿وللآخرة خير لك من الأولى﴾ أي وللدار الآخرة خير لك من هذه الدار، ولهذا كان رسول الله ﷺ أزهد الناس في الدنيا وأعظمهم لها اطراحاً، كما هو معلوم بالضرورة من سيرته، ولما خيّر عليه السلام في آخر عمره، بين الخلد في الدنيا إلى آخرها ثم الجنة، وبين الصيرورة إلى الله عزّ وجلّ، اختار ما عند الله على هذه الدنيا الدنية، روى الإمام أحمد، عن عبد الله بن مسعود قال: اضطجع رسول الله ﷺ على حصير فأثر في جنبه، فلما استيقظ جعلت أمسح جنبه، وقلت: يا رسول الله ألا آذنتنا حتى نبسط لك على الحصير شيئاً، فقال رسول الله ﷺ: «ما لي وللدنيا إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب ظلّ تحت شجرة ثم راح وتركها»[1]. وقوله تعالى: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ أي في الدار الآخرة يعطيه حتى يرضيه في أمته، وفيما أعده له من الكرامة، ومن جملته نهر الكوثر الذي حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف وطينه مسك أذفر كما سيأتي. وروي عن ابن عباس أنه قال: عرض على رسول الله ﷺ ما هو مفتوح على أمته من بعده كنزاً كنزاً فسرّ بذلك، فأنزل الله ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ فأعطاه في الجنة ألف ألف قصر في كل قصر ما ينبغي له من الأزواج والخدم[2]، وقال السدي عن ابن عباس: من رضاء محمد ﷺ أن لا يدخل أحد من أهل بيته النار، قال الحسن: يعني بذلك الشفاعة. ثم قال تعالى يعدّد نعمه على عبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه: ﴿ألم يجدك يتيماً فآوى﴾ وذلك أن أباه توفي وهو حمل في بطن أمه، ثم توفيت أمه آمنة بنت وهب وله من العمر ست سنين، ثم كان في كفالة جده عبد المطلب إلى أن توفي وله من العمر ثمان سنين، فكفله عمه أبو طالب، ثم لم يزل يحوطه وينصره ويرفع من قدره ويوقره ويكف عنه أذى قومه بعد أن ابتعثه الله على رأس أربعين سنة من عمره، هذا وأبو طالب على دين قومه من عبادة الأوثان، وكل ذلك بقدر الله وحسن تدبيره، إلى أن توفي أبو طالب قبل الهجرة بقليل، فأقدم عليه سفهاء قريش وجهالهم، فاختار الله له الهجرة من بين أظهرهم إلى بلد الأنصار من الأوس والخزرج، كما أجرى الله سنته على الوجه الأتم الأكمل، فلما وصل إليهم آووه ونصروه وحاطوه وقاتلوا بين يديه رضي الله عنهم أجمعين، وكل هذا من حفظ الله له وكلاءته وعنايته به.

وقوله تعالى: ﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾ كقوله: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان﴾ الآية، ومنهم من قال: إن المراد بهذا أن النبي ﷺ ضلّ في شعاب مكة وهو صغير ثم رجع، وقيل: إنه ضل وهو مع عمه في طريق الشام وكان راكباً ناقة في الليل، فجاء إبليس فعدل بها عن الطريق، فجاء جبريل فنفخ إبليس نفخة ذهب منها إلى الحبشة، ثم عدل بالراحلة إلى الطريق، حكاهما البغوي، وقوله تعالى: ﴿ووجدك عائلاً فأغنى﴾ أي كنت فقيراً ذا عيال فأغناك الله عمن سواه، فجمع له بين مقامي الفقير الصابر، والغني الشاكر، صلوات الله وسلامه عليه، وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس»[3]. وفي «صحيح مسلم» عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه»[4]. ثم قال تعالى: ﴿فأما اليتيم فلا تقهر﴾ أي كما كنت يتيماً فآواك الله، فلا تقهر اليتيم، أي لا تذله وتنهره وتهنه، ولكن أحسن إليه وتلطف به، وقال قتادة: كن لليتيم كالأب الرحيم، ﴿وأما السائل فلا تنهر﴾ أي وكما كنت ضالاً فهداك الله، فلا تنهر السائل في العلم المسترشد، قال ابن إسحاق: ﴿وأما السائل فلا تنهر﴾ أي فلا تكن جباراً ولا متكبراً، ولا فحاشاً ولا فظاً على الضعفاء من عباد الله، وقال قتادة: يعني ردّ المسكين برحمة ولين،

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجة، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) أخرجه ابن جرير، قال ابن كثير: إسناده صحيح، ومثل هذا لا يقال إلاّ عن توقيف.

(٣) أخرجه الشيخان.

(٤) أخرجه مسلم.

﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾ أي وكما كنت عائلاً فقيراً فأغناك الله، فحدث بنعمة الله عليك، كما جاء في الدعاء المأثور: «واجعلنا شاكرين لنعمتك، مثنين بها عليك، قابليها وأتمها علينا». وعن أبي نضرة قال: كان المسلمون يرون أن من شكر النعم أن يحدث بها[١]، وفي الصحيحين عن أنس أن المهاجرين قالوا: يا رسول الله ذهب الأنصار بالأجر كله، قال: «لا، ما دعوتم الله لهم، وأثنيتم عليهم»[٢]، وروى أبو داود عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس»[٣]. وقال مجاهد: يعني النبوة التي أعطاك ربك، وفي رواية عنه: القرآن، وقال الحسن بن علي: ما عملت من خير فحدّث إخوانك، وقال ابن إسحاق: ما جاءك من الله من نعمة وكرامة من النبوة، فحدث بها واذكرها وادع إليها.

[آخر تفسير سورة الضحى، ولله الحمد والمنة]

• • •

٩٤ ـ سورة الشرح

مكية وآياتها ثمان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ يعني قد شرحنا لك صدرك أي نورناه، وجعلناه فسيحاً رحيباً واسعاً كقوله: ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾، وكما شرح الله صدره كذلك جعل شرعه فسيحاً سمحاً سهلاً، لا حرج فيه ولا إصر ولا ضيق، وقيل: المراد بقوله: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ شرح صدره ليلة الإسراء، وهذا وإن كان واقعاً ليلة الإسراء ولكن لا منافاة، فإن من جملة شرح صدره الحسي الشرح المعنوي أيضاً، وقوله تعالى: ﴿ووضعنا عنك وزرك﴾، بمعنى ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾، ﴿الذي أنقض ظهرك﴾ الإنقاض الصوت أي أثقلك حمله، وقوله تعالى: ﴿ورفعنا لك ذكرك﴾ قال مجاهد: لا أذكر إلاّ ذكرت معي «أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أن محمداً رسول الله» وقال قتادة: رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة، فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة إلاّ ينادي بها: أشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله، روى ابن جرير عن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أتاني جبريل فقال: إن ربي وربك يقول: كيف رفعت ذكرك؟ قال: الله أعلم، قال: إذا ذكرتُ ذكرتَ معي»[٤]. وحكى البغوي عن ابن عباس ومجاهد أن المراد بذلك الأذان، يعني ذكره فيه، كما قال حسان بن ثابت:

وضم الإله اسم النبي إلى اسمه ... إذا قال في الخمس المؤذن أشهد

وشق له من اسمه ليجله ... فذو العرش محمود وهذا محمد

وقال آخرون: رفع الله ذكره في الأولين والآخرين، ونوه به حين أخذ الميثاق على جميع النبيين أن يؤمنوا به، وأن يأمروا أممهم بالإيمان به، ثم شهر ذكره في أمته، فلا يذكر الله إلاّ ذكر معه.

---

(١) رواه ابن جرير.
(٢) أخرجه الشيخان.
(٣) أخرجه أبو داود والترمذي.
(٤) رواه ابن جرير.

وقوله تعالى: ﴿فإن مع العسر يسراً * إن مع العسر يسراً﴾ أخبر تعالى أن مع العسر يوجد اليسر، ثم أكد هذا الخبر، بقوله ﴿إن مع العسر يسراً﴾، قال الحسن: كانوا يقولون: لا يغلب عسر واحد يسرين اثنين، وعن قتادة ذكر لنا أن رسول الله ﷺ بشّر أصحابه بهذه الآية فقال: «لن يغلب عسر يُسْرَيْن»[1]، ومعنى هذا أن العسر معرف في الحالين، فهو مفرد، واليسر منكر، فتعدّد، ولهذا قال: «لن يغلب عسر يسرين» يعني قوله: ﴿فإن مع العسر يسراً * إن مع العسر يسراً﴾ فالعسر الأول عين الثاني، واليسر تعدّد، ومما يروى عن الشافعي أنه قال:

صبراً جميلاً ما أقرب الفرجا ... من راقب الله في الأمور نجا
من صدق الله لم ينله أذى ... ومن رجاه يكون حيث رجا

وقال الشاعر:

ولرب نازلة يضيق بها الفتى ... ذرعاً وعند الله منها المخرج
كملت فلما استحكمت حلقاتها ... فرجت وكان يظنها لا تفرج

وقوله تعالى: ﴿فإذا فرغت فانصب * وإلى ربك فارغب﴾ أي إذا فرغت من أمور الدنيا وأشغالها، وقطعت علائقها فانصب إلى العبادة، وقم إليها نشيطاً فارغ البال، واخلص لربك النية والرغبة، قال مجاهد في هذه الآية: إذا فرغت من أمر الدنيا فقمت إلى الصلاة فانصب لربك، وعن ابن مسعود: إذا فرغت من الفرائض فانصب في قيام الليل، وفي رواية عنه ﴿فانصب﴾ بعد فراغك من الصلاة وأنت جالس، وقال ابن عباس ﴿فإذا فرغت فانصب﴾ يعني في الدعاء، وقال الضحاك ﴿فإذا فرغت﴾ أي من الجهاد ﴿فانصب﴾ أي في العبادة ﴿وإلى ربك فارغب﴾ قال الثوري: اجعل نيتك ورغبتك إلى الله عزّ وجلّ.

[آخر تفسير سورة ألم نشرح، ولله الحمد والمنة]

• • •

٩٥ - سورة التين

مكية وآياتها ثمان

روى مالك عن البراء بن عازب قال: «كان النبي ﷺ يقرأ في سفره في إحدى الركعتين بالتين والزيتون، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه» أخرجه الجماعة.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝٥ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ۝٨﴾.

اختلف المفسرون ههنا على أقوال كثيرة فقيل: المراد بالتين دمشق، وقيل: الجبل الذي عندها، وقال القرطبي: هو مسجد أصحاب الكهف، وروي عن ابن عباس: أنه مسجد نوح الذي على الجودي، وقال مجاهد: هو تينكم هذا ﴿والزيتون﴾ قال قتادة: هو مسجد بيت المقدس، وقال مجاهد وعكرمة: هو هذا

(١) رواه ابن جرير.

الزيتون الذي تعصرون، ﴿وطور سينين﴾ هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام، ﴿وهذا البلد الأمين﴾ يعني مكة[١]، قاله ابن عباس ومجاهد، وقال بعض الأئمة: هذه محال ثلاثة، بعث الله في كل واحد منها نبياً مرسلاً من أولي العزم، أصحاب الشرائع الكبار. (فالأول) محلة التين والزيتون وهي (بيت المقدس) التي بعث الله فيها عيسى ابن مريم عليه السلام، (والثاني) طور سينين وهو (طور سيناء) الذي كلم الله عليه موسى بن عمران، (والثالث) مكة وهو (البلد الأمين) الذي من دخله كان آمناً، وهو الذي أرسل فيه محمداً ﷺ، قالوا: وفي آخر التوراة ذكر هذه الأماكن الثلاثة: جاء الله من طور سيناء ـ يعني الذي كلم الله عليه موسى بن عمران ـ وأشرق من ساعير ـ يعني جبل بيت المقدس الذي بعث الله منه عيسى ـ واستعلن من جبال فاران ـ يعني جبال مكة التي أرسل الله منها محمداً ﷺ، فذكرهم مخبراً عنهم على الترتيب الوجودي، بحسب ترتيبهم في الزمان، ولهذا أقسم بالأشرف ثم الأشرف منه، ثم بالأشرف منهما، وقوله تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ هذا هو المقسم عليه، وهو أنه تعالى خلق الإنسان في أحسن صورة وشكل؛ منتصب القامة، سوي الأعضاء حسنها. ﴿ثم رددناه أسفل سافلين﴾ أي إلى النار[٢]. أي بعد هذا الحسن والنضارة، مصيره إلى النار إن لم يطع الله ويتبع الرسل، ولهذا قال: ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾، وقال بعضهم: ﴿ثم رددناه أسفل سافلين﴾ أي إلى أرذل العمر[٣]. واختار ذلك ابن جرير، ولو كان هذا هو المراد لما حسن استثناء المؤمنين من ذلك، لأن الهرم قد يصيب بعضهم، وإنما المراد ما ذكرناه كقوله تعالى: ﴿والعصر * إن الإنسان لفي خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾، وقوله: ﴿فلهم أجر غير ممنون﴾ أي غير مقطوع، ثم قال: ﴿فما يكذبك﴾ أي يا ابن آدم ﴿بعد بالدين﴾؟ أي بالجزاء في المعاد، ولقد علمت البداءة وعرفت أن من قدر على البداءة فهو قادر على الرجعة بطريق الأولى: فأي شيء يحملك على التكذيب بالمعاد وقد عرفت هذا؟ روى ابن أبي حاتم عن منصور قال: قلت لمجاهد: ﴿فما يكذبك بعد بالدين﴾ عنى به النبي ﷺ؟ قال: «معاذ الله» عنى به الإنسان[٤]، وقوله تعالى: ﴿أليس الله بأحكم الحاكمين﴾ أي أما هو أحكم الحاكمين الذي لا يجور ولا يظلم أحداً، ومن عدله أن يقيم القيامة فينتصف للمظلوم في الدنيا ممن ظلمه، وقد قدمنا في حديث أبي هريرة مرفوعاً: «فإذا قرأ أحدكم والتين والزيتون فأتى على آخرها ﴿أليس الله بأحكم الحاكمين﴾ فليقل: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين».

[آخر تفسير سورة التين والزيتون، ولله الحمد والمنة]

• • •

(١) هو قول جمهور المفسرين، قال ابن كثير: ولا خلاف في ذلك.

(٢) قاله مجاهد والحسن وأبو العالية وابن زيد.

(٣) وروي هذا القول عن ابن عباس وعكرمة، حتى قال عكرمة: من جمع القرآن لم يرد إلى أرذل العمر.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم.

٩٦ ـ سورة العلق

مكية وآياتها تسع عشرة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴿١﴾ خلق الإنسان من علق ﴿٢﴾ اقرأ وربك الأكرم ﴿٣﴾ الذي علم بالقلم ﴿٤﴾ علم الإنسان ما لم يعلم ﴿٥﴾﴾.

عن عائشة قالت: «أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلاّ جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبّب إليه الخلاء فكان يأتي حراء فيتحنث فيه ـ وهو التعبد ـ الليالي ذوات العدد، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود لمثلها حتى فجأه الوحي، وهو في غار حراء فجاءه الملك فيه، فقال: اقرأ، قال رسول الله ﷺ: «فقلت: ما أنا بقارىء ـ قال ـ فأخذني فغطّني، حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارىء، فغطّني الثانية، حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارىء، فغطّني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ باسم ربك الذي خلق ـ حتى بلغ ـ ما لم يعلم». قال: فرجع بها ترجف بوادره، حتى دخل على خديجة فقال: «زمّلوني زمّلوني»، فزمّلوه حتى ذهب عنه الروع فقال: «يا خديجة ما لي؟» وأخبرها الخبر، وقال: «قد خشيت على نفسي». فقالت له: «كلا أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق»، ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به (ورقة بن نوفل) بن أسد بن عبد العزى بن قصي، وهو ابن عم خديجة أخي أبيها، وكان امرءاً قد تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العربي، وكتب بالعربية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت خديجة: أي ابن عم، اسمع من ابن أخيك، فقال ورقة: ابن أخي ما ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ بما رأى فقال ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى، ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً حين يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: «أو مخرجيّ هم؟» فقال ورقة: نعم لم يأت رجل قط بما جئت به إلاّ عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً، ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي»[1]. فأول شيء نزل من القرآن هذه الآيات الكريمات المباركات، وهن أول رحمة رحم الله بها العباد، وأول نعمة أنعم الله بها عليهم، وفيها التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقة، وأن من كرمه تعالى أن علّم الإنسان ما لم يعلم فشرّفه وكرّمه بالعلم، وهو القدر الذي امتاز به أبو البرية آدم على الملائكة، والعلم تارة يكون في الأذهان، وتارة يكون في اللسان، وتارة يكون في الكتابة بالبنان[2]، ذهني، ولفظي، ورسمي، فلهذا قال: ﴿اقرأ وربك الأكرم * الذي علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم﴾، وفي الأثر: من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يكن يعلم.

﴿كلا إن الإنسان ليطغى ﴿٦﴾ أن رآه استغنى ﴿٧﴾ إن إلى ربك الرجعى ﴿٨﴾ أرأيت الذي ينهى ﴿٩﴾ عبداً إذا صلى ﴿١٠﴾ أرأيت إن كان على الهدى ﴿١١﴾ أو أمر بالتقوى ﴿١٢﴾ أرأيت إن كذب وتولى ﴿١٣﴾ ألم يعلم بأن الله يرى ﴿١٤﴾ كلا لئن لم ينته لنسفعاً بالناصية ﴿١٥﴾ ناصية كاذبة خاطئة ﴿١٦﴾ فليدع ناديه ﴿١٧﴾ سندع الزبانية ﴿١٨﴾ كلا لا تطعه واسجد واقترب ﴿١٩﴾﴾.

يخبر تعالى عن الإنسان، أنه ذو أشر وبطر وطغيان، إذا رأى نفسه قد استغنى وكثر ماله، ثم تهدده

---

(١) أخرجه الشيخان والإمام أحمد واللفظ له.

(٢) وفي الأثر: قيدوا العلم بالكتابة.

وتوعده ووعظه فقال: ﴿إن إلى ربك الرجعى﴾ أي إلى الله المصير والمرجع، وسيحاسبك على مالك من أين جمعته وفيم صرفته، عن عبد الله بن مسعود قال: منهومان لا يشبعان: صاحب العلم وصاحب الدنيا، ولا يستويان، فأما صاحب العلم فيزداد رضى الرحمن، وأما صاحب الدنيا فيتمادى في الطغيان، قال: ثم قرأ عبد الله: ﴿إن الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى﴾، وقال للآخر: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾، وقد روي هذا مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ: «منهومان لا يشبعان: طالب علم، وطالب دنيا»[1]، ثم قال تعالى: ﴿أرأيت الذي ينهى * عبداً إذا صلى﴾ نزلت في (أبي جهل) لعنه الله، توعد النبي ﷺ على الصلاة عند البيت، فوعظه تعالى بالتي هي أحسن أولاً. فقال: ﴿أرأيت إن كان على الهدى﴾ أي فما ظنك إن كان هذا الذي تنهاه على الطريق المستقيمة في فعله ﴿أو أمر بالتقوى﴾ بقوله وأنت تزجره وتتوعده على صلاته؟ ولهذا قال: ﴿ألم يعلم بأن الله يرى﴾؟ أي أما علم هذا الناهي لهذا المهتدي أن الله يراه ويسمع كلامه، وسيجازيه على فعله أتم الجزاء، ثم قال تعالى متوعداً ومتهدداً ﴿كلا لئن لم ينته﴾ أي لئن لم يرجع عما هو فيه من الشقاق والعناد ﴿لنسفعاً بالناصية﴾ أي لنسمنها سواداً يوم القيامة، ثم قال: ﴿ناصية كاذبة خاطئة﴾ يعني ناصية (أبي جهل) كاذبة في مقالها، خاطئة في أفعالها، ﴿فليدع ناديه﴾ أي قومه وعشيرته أي ليدعهم يستنصر بهم، ﴿سندع الزبانية﴾ وهم ملائكة العذاب حتى يعلم من يغلب، أحزبنا أو حزبه؟ روى البخاري عن ابن عباس قال: قال أبو جهل: لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لأطأن على عنقه، فبلغ النبي ﷺ فقال: «لئن فعل لأخذته الملائكة»[2]. عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يصلي عند المقام. فمر به أبو جهل بن هشام، فقال: يا محمد ألم أنهك عن هذا؟ وتوعده فأغلظ له رسول الله ﷺ وانتهره. فقال: يا محمد بأي شيء تهددني؟ أما والله إني لأكثر هذا الوادي نادياً، فأنزل الله: ﴿فليدع ناديه * سندع الزبانية﴾ وقال ابن عباس: لو دعا ناديه لأخذته ملائكة العذاب من ساعته[3]. وروى ابن جرير، عن أبي هريرة قال: قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قالوا: نعم، قال: فقال: واللات والعزى لئن رأيته يصلي كذلك لأطأن على رقبته، ولأعفرن وجهه في التراب، فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي ليطأ على رقبته، قال: فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه، قال: فقيل له ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه خندقاً من نار وهولاً وأجنحة! قال: فقال رسول الله ﷺ: «لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً»، قال: وأنزل الله: ﴿كلا إن الإنسان ليطغى﴾[4] إلى آخر السورة، وقوله تعالى: ﴿كلا لا تطعه﴾ يعني يا محمد لا تطعه فيما ينهاك عنه من المداومة على العبادة وكثرتها، وصل حيث شئت ولا تبالِه، فإن الله حافظك وناصرك وهو يعصمك من الناس، ﴿واسجد واقترب﴾ كما ثبت في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء»[5]. وتقدم أيضاً أن رسول الله ﷺ كان يسجد في ﴿إذا السماء انشقت﴾ و﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾.

[آخر تفسير سورة اقرأ ولله الحمد والمنة وبه التوفيق والعصمة]

• • •

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.
(٢) أخرجه البخاري.
(٣) أخرجه أحمد والترمذي، وقال حسن صحيح.
(٤) رواه أحمد والنسائي وابن جرير واللفظ له.
(٥) رواه مسلم في صحيحه.

٩٧ ـ سورة القدر

مكية وآياتها خمس

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ۝٥﴾.

يخبر تعالى أنه أنزل القرآن ﴿ليلة القدر﴾ وهي الليلة المباركة التي قال الله عزّ وجلّ: ﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾ وهي من شهر رمضان، كما قال تعالى: ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾، قال ابن عباس: أنزل الله القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا، ثم نزل مفصلاً بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة على رسول الله ﷺ ثم قال تعالى معظماً لشأن ليلة القدر التي اختصها بإنزال القرآن العظيم فيها، فقال: ﴿وما أدراك ما ليلة القدر * ليلة القدر خير من ألف شهر﴾. روى ابن أبي حاتم، عن مجاهد أن النبي ﷺ ذكر رجلاً من بني إسرائيل لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر، قال: فعجب المسلمون من ذلك قال: فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر * وما أدراك ما ليلة القدر * ليلة القدر خير من ألف شهر﴾ التي لبس ذلك الرجل السلاح في سبيل الله ألف شهر [١]، وروى ابن جرير، عن مجاهد قال: «كان في بني إسرائيل رجل يقوم الليل حتى يصبح، ثم يجاهد العدوّ بالنهار حتى يمسي، ففعل ذلك ألف شهر، فأنزل الله هذه الآية ﴿ليلة القدر خير من ألف شهر﴾ قيام تلك الليلة خير من عمل ذلك الرجل» [٢]، وقال سفيان الثوري: بلغني عن مجاهد ليلة القدر خير من ألف شهر قال: عملها وصيامها وقيامها خير من ألف شهر، وعن مجاهد: ليلة القدر خير من ألف شهر ليس في تلك الشهور ليلة القدر، وقال عمرو بن قيس: عملٌ فيها خير من عمل ألف شهر، وهذا القول بأنها أفضل من عبادة ألف شهر ليس فيها ليلة القدر هو اختيار ابن جرير، وهو الصواب، كقوله ﷺ: «رباط ليلة في سبيل الله خير من ألف ليلة فيما سواه من المنازل» [٣]. وفي الحديث الصحيح في فضائل رمضان قال عليه السلام: «فيه ليلة خير من ألف شهر من حرم خيرها فقد حرم» [٤] ولما كانت ليلة القدر تعدل عبادتها عبادة ألف شهر، ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه» [٥]. وقوله تعالى: ﴿تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر﴾ أي يكثر تنزل الملائكة في هذه الليلة لكثرة بركتها، والملائكة يتنزلون مع تنزل البركة والرحمة، كما يتنزلون عند تلاوة القرآن، ويحيطون بحلق الذكر، ويضعون أجنحتهم لطالب العلم تعظيماً له، وأما الروح فقيل: المراد به ههنا جبريل عليه السلام، فيكون من باب عطف الخاص على العام، وقيل: هم ضرب من الملائكة كما تقدم في سورة النبأ، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿من كل أمر﴾ قال مجاهد: سلام هي من كل أمر، وقال سعيد بن منصور عن مجاهد في قوله:

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه ابن جرير عن مجاهد موقوفاً.

(٣) أخرجه أحمد.

(٤) أخرجه أحمد والنسائي.

(٥) أخرجه الشيخان.

﴿سلام هي﴾ قال: هي سالمة لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءاً، أو يعمل فيها أذى، وقال قتادة: تقضى فيها الأمور، وتقدر الآجال والأرزاق، كما قال تعالى: ﴿فيها يفرق كل أمر حكيم﴾، وروى أبو داود الطيالسي، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال في ليلة القدر: «إنها ليلة سابعة، أو تاسعة وعشرين، وإن الملائكة تلك الليلة في الأرض أكثر من عدد الحصى»[١]. وقال قتادة وابن زيد في قوله: ﴿سلام هي﴾ يعني هي خير كلها ليس فيها شر إلى مطلع الفجر، وأمارة ليلة القدر أنها صافية بلجة، كأن فيها قمراً ساطعاً، ساكنة ساجية لا برد فيها ولا حر، والشمس صبيحتها تخرج مستوية ليس لها شعاع مثل القمر ليلة البدر، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال في ليلة القدر: «ليلة سمحة طلقة لا حارة ولا باردة وتصبح شمس صبيحتها ضعيفة حمراء»[٢]. وعن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «إني رأيت ليلة القدر فأنسيتها وهي في العشر الأواخر من لياليها وهي طلقة بلجة لا حارة ولا باردة، كأن فيها قمراً لا يخرج شيطانها حتى يضيء فجرها».

فصل

اختلف العلماء هل كانت ليلة القدر في الأمم السالفة أو هي من خصائص هذه الأمة؟ فقال الزهري: حدثنا مالك أنه بلغه أن رسول الله ﷺ أُرِي أعمار الناس قبله أو ما شاء الله من ذلك، فكأنه تقاصر أعمار أمته أن لا يبلغوا من العمل الذي بلغ غيرهم في طول العمر، فأعطاه الله ليلة القدر خيراً من ألف شهر[٣]. وهذا الذي قاله مالك يقتضي تخصيص هذه الأمة بليلة القدر. وقيل: إنها كانت في الأمم الماضين كما هي في امتنا. ثم هي باقية إلى يوم القيامة وفي رمضان خاصة لا كما روي عن ابن مسعود ومن تابعه من علماء أهل الكوفة من أنها توجد في جميع السنة، وترتجى في جميع الشهور على السواء. وقد ترجم أبو داود في «سننه» على هذا فقال: (باب بيان أن ليلة القدر في كل رمضان)، ثم روى بسنده عن عبد الله بن عمر قال: سئل رسول الله ﷺ وأنا أسمع عن ليلة القدر؟ فقال: «هي في كل رمضان»[٤]، وقد حكي عن أبي حنيفة رحمه الله رواية أنها ترتجى في كل شهر رمضان وهو وجه حكاه الغزالي.

فصل

ثم قد قيل: إنها تكون في أول ليلة من شهر رمضان، وقيل: إنها تقع ليلة سبع عشرة، وهو قول الشافعي، ويحكى عن الحسن البصري ووجهوه بأنها ليلة بدر، وكانت ليلة جمعة هي السابعة عشرة من شهر رمضان، وفي صبيحتها كانت وقعة بدر، وهو اليوم الذي قال الله تعالى فيه: ﴿يوم الفرقان﴾. وقيل: ليلة تسع عشرة، يحكى عن علي وابن مسعود، وقيل: ليلة إحدى وعشرين لحديث أبي سعيد الخدري قال: «اعتكف رسول الله ﷺ في العشر الأول من رمضان، واعتكفنا معه، فأتاه جبريل فقال: إن الذي تطلب أمامك، فاعتكف العشر الأوسط. فاعتكفنا معه، فأتاه جبريل فقال: الذي تطلب أمامك، ثم قام النبي ﷺ خطيباً صبيحة عشرين من رمضان، فقال: «من كان اعتكف معي فليرجع فإني رأيت ليلة القدر، وإني أنسيتها وإنها في العشر الأواخر في وتر. وإني رأيت كأني أسجد في طين وماء». وكان سقف المسجد جريداً من النخل، وما نرى في السماء شيئاً، فجاءت قزعة، فمطرنا فصلّى بنا النبي ﷺ، حتى رأيت أثر الطين والماء على جبهة رسول الله ﷺ تصديق رؤياه في صبح إحدى وعشرين»[٥]. قال الشافعي: وهذا الحديث أصح الروايات. وقيل: ليلة ثلاث وعشرين. وقيل: تكون ليلة خمس وعشرين لما رواه البخاري عن عبد الله بن

---

(١) رواه الطيالسي.
(٢) أخرجه الطيالسي.
(٣) أخرجه مالك.
(٤) أخرجه أبو داود.
(٥) أخرجه الشيخان.

عباس أن رسول الله ﷺ قال: «التمسوها في العشر الأواخر من رمضان في تاسعة تبقى، في سابعة تبقى، في خامسة تبقى»[١] فسره كثيرون بليالي الأوتار، وهو أظهر وأشهر، وحمله آخرون على الأشفاع. وقيل: إنها تكون ليلة سبع وعشرين، لما رواه مسلم في «صحيحه» عن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ أنها ليلة سبع وعشرين، قال الإمام أحمد: عن زر: سألت أبي بن كعب قلت: أبا المنذر إن أخاك ابن مسعود يقول: من يقم الحول يصب ليلة القدر، قال: يرحمه الله لقد علم أنها في شهر رمضان، وأنها ليلة سبع وعشرين، ثم حلف، قلت: وكيف تعلمون ذلك؟ قال: بالعلامة أو بالآية التي أخبرنا بها، تطلع ذلك اليوم لا شعاع لها يعني الشمس[٢]، وهو قول طائفة من السلف، ومذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، وهو رواية عن أبي حنيفة أيضاً، وقيل: إنها تكون في ليلة تسع وعشرين، روى الإمام أحمد بن حنبل عن عبادة بن الصامت أنه سأل رسول الله ﷺ عن ليلة القدر، فقال رسول الله ﷺ: «في رمضان فالتمسوها في العشر الأواخر فإنها في وتر إحدى وعشرين أو ثلاث وعشرين أو خمس وعشرين أو سبع وعشرين أو تسع وعشرين أو في آخر ليلة»[٣]، وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال في ليلة القدر: «إنها في ليلة سابعة أو تاسعة وعشرين، وإن الملائكة تلك الليلة في الأرض أكثر من عدد الحصى»[٤]. وقيل: إنها تكون في آخر ليلة لما تقدم من هذا الحديث آنفاً، ولما رواه الترمذي والنسائي من حديث عيينة بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي بكرة أن رسول الله ﷺ قال: «في تسع يبقين أو سبع يبقين أو خمس يبقين أو ثلاث أو آخر ليلة يعني التمسوا ليلة القدر»[٥]. وفي «المسند» من طريق أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في ليلة القدر: «إنها آخر ليلة».

فصل

قال الشافعي في هذه الروايات: صدرت من النبي ﷺ جواباً للسائل إذا قيل له: أنلتمس ليلة القدر في الليلة بالفلانية؟ يقول: «نعم»، وإنما ليلة القدر ليلة معينة لا تنتقل، وروي عن أبي قلابة أنه قال: ليلة القدر تنتقل في العشر الأواخر، وهذا الذي حكاه عن أبي قلابة هو الأشبه، والله أعلم. وقد يستأنس لهذا القول بما ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن عمر أن رجالاً من أصحاب النبي ﷺ أروا ليلة القدر في المنام في السبع الأواخر من رمضان، فقال رسول الله ﷺ: «أرى رؤياكم قد تواطأت في السبع الأواخر. فمن كان متحريها، فليتحرها في السبع الأواخر»[٦]، وفيهما أيضاً عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «تحروا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من رمضان»[٧]، ويحتج الشافعي أنها لا تنتقل وأنها معينة من الشهر بما رواه البخاري في «صحيحه» عن عبادة بن الصامت قال: خرج رسول الله ﷺ ليخبرنا بليلة القدر، فتلاحى رجلان من المسلمين فقال «خرجت لأخبركم بليلة القدر فتلاحى فلان وفلان فرفعت، وعسى أن يكون خيراً لكم فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة»[٨]، وجه الدلالة منه أنها لو لم تكن معينة مستمرة التعيين لما حصل لهم العلم بعينها في كل سنة، إذ لو كانت تنتقل لما علموا تعيينها إلاّ ذلك العام فقط، اللهم إلاّ أن يقال إنه إنما خرج ليعلمهم بها تلك السنة فقط، وقوله: «فتلاحى فلان وفلان فرفعت» فيه استئناس لما يقال: إن المماراة تقطع الفائدة والعلم النافع، كما جاء في الحديث: «إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه» وقوله: «فرفعت» أي رفع علم تعيينها لكم، لا أنها رفعت بالكلية من الوجود، كما يقوله جهلة الشيعة، لأنه قد قال بعد هذا: «فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة»، وقوله: «وعسى أن يكون خيراً لكم» يعني عدم تعيينها

---

(١) أخرجه البخاري.
(٢) أخرجه أحمد ورواه مسلم بنحوه.
(٣) أخرجه أحمد.
(٤) أخرجه أحمد.
(٥) أخرجه الترمذي والنسائي، وقال الترمذي: حسن صحيح.
(٦) أخرجاه في الصحيحين.
(٧) أخرجه الشيخان، واللفظ للبخاري.
(٨) أخرجه البخاري.

لكم فإنها إذا كانت مبهمة اجتهد طلابها في ابتغائها في جميع محال رجائها، فكان أكثر للعبادة بخلاف ما إذا علموا عينها، فإنها كانت الهمم تتقاصر على قيامها فقط، وإنما اقتضت الحكمة إبهامها لتعم العبادة جميع الشهر في ابتغائها، ويكون الاجتهاد في العشر الأخير أكثر، ولهذا كان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله عزّ وجلّ، ثم اعتكف أزواجه بعده. عن ابن عمر: كان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان[1]، وقالت عائشة: كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر أحيا الليل وأيقظ أهله، وشد المئزر، ولمسلم عنها: كان رسول الله ﷺ يجتهد في العشر ما لا يجتهد في غيره، وهذا معنى قولها وشد المئزر، وقيل: المراد بذلك اعتزال النساء، ويحتمل أن يكون كناية عن الأمرين لما رواه الإمام أحمد، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا بقي عشر من رمضان شد مئزره، واعتزل نساءه، وقد حكي عن مالك رحمه الله أن جميع ليالي العشر في تطلب ليلة القدر على السواء، لا يترجح منها ليلة على أخرى، والمستحب الإكثار من الدعاء في جميع الأوقات وفي شهر رمضان أكثر، وفي العشر الأخير منه، ثم في أوتاره أكثر، والمستحب أن يكثر من هذا الدعاء: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني، لما رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن بريدة أن عائشة قالت: يا رسول الله، إن وافقت ليلة القدر فما أدعو؟ قال: «قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني»[2].

[آخر تفسير سورة ليلة القدر، ولله الحمد والمنة]

• • •

(١) أخرجاه في الصحيحين.

(٢) أخرجه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجة.

٩٨ - سورة البينة

مدنية وآياتها ثمان

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ لأبيّ بن كعب: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك: ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب﴾» قال: وسماني لك؟ قال: «نعم»، فبكى[1].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝٤ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ۝٥﴾.

أما أهل الكتاب فهم اليهود والنصارى، والمشركون عبدة الأوثان والنيران من العرب ومن العجم، قال مجاهد: لم يكونوا ﴿منفكين﴾ يعني منتهين حتى يتبين لهم الحق ﴿حتى تأتيهم البينة﴾ أي هذا القرآن، ولهذا قال تعالى: ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة﴾ ثم فسر البينة بقوله: ﴿رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة﴾ يعني محمداً ﷺ وما يتلوه من القرآن العظيم الذي هو مكتب في الملأ الأعلى في صحف مطهرة، كقوله تعالى: ﴿في صحف مكرمة * مرفوعة مطهرة * بأيدي سفرة * كرام برره، وقوله تعالى: ﴿فيها كتب قيمة﴾ قال ابن جرير: أي في الصحف المطهرة كتب من الله قيمة عادلة مستقيمة، ليس فيها خطأ لأنها من عند الله عزّ وجلّ، قال قتادة ﴿رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة﴾ يذكر القرآن بأحسن الذكر، ويثني عليه بأحسن الثناء، وقال ابن زيد: ﴿فيها كتب قيمة﴾ مستقيمة معتدلة، وقوله تعالى: ﴿وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة﴾ كقوله تعالى: ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم﴾، يعني بذلك أهل الكتب المنزلة على الأمم قبلنا، وبعد ما أقام الله عليهم الحجج والبينات تفرقوا، واختلفوا في الذي أراده الله من كتبهم، واختلفوا اختلافاً كبيراً، كما جاء في الحديث المروي من طرق: «إن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة، وإن النصارى اختلفوا على اثنين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة»، قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي»، وقوله تعالى: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾ كقوله: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾، ولهذا قال: ﴿حنفاء﴾ أي متحنفين من الشرك إلى التوحيد، كقوله: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾، وقد تقدم تقرير الحنيف في سورة الأنعام بما أغنى عن إعادته ها هنا، ﴿ويقيموا الصلاة﴾ وهي أشرف عبادات البدن، ﴿ويؤتوا الزكاة﴾ وهي الإحسان إلى الفقراء والمحاويج ﴿وذلك دين القيمة﴾ أي الملة القائمة العادلة، أو الأمة المستقيمة المعتدلة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ۝٦ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي.

﴿وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ۝٨﴾.

يخبر تعالى عن مآل الفجار من كفرة أهل الكتاب والمشركين، المخالفين لكتب الله المنزلة وأنبياء الله المرسلة، أنهم يوم القيامة في نار جهنم ﴿خالدين فيها﴾ أي ماكثين فيها لا يحولون عنها ولا يزولون، ﴿أولئك هم شر البرية﴾ أي شر الخليقة التي برأها الله وذرأها، ثم أخبر تعالى عن حال الأبرار الذين آمنوا بقلوبهم وعملوا الصالحات بأبدانهم بأنهم خير البرية، وقد استدل بهذه الآية أبو هريرة وطائفة من العلماء على تفضيل المؤمنين من البرية على الملائكة لقوله: ﴿أولئك هم خير البرية﴾، ثم قال تعالى: ﴿جزاؤهم عند ربهم﴾ أي يوم القيامة ﴿جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً﴾ أي بلا انفصال ولا انقضاء ولا فراغ ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ ومقام رضاء عنهم أعلى مما أوتوه من النعيم المقيم ﴿ورضوا عنه﴾ فيما منحهم من الفضل العميم. وقوله تعالى: ﴿ذلك لمن خشي ربه﴾ أي هذا الجزاء حاصل لمن خشي الله واتقاه حق تقواه، وعبده كأنه يراه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بخير البرية؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «رجل آخذ بعنان فرسه في سبيل الله كلما كانت هيعة استوى عليه، ألا أخبركم بخير البرية؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «رجل في ثلة من غنمه يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة، ألا أخبركم بخير البرية؟» قالوا: بلى، قال: «الذي يسأل بالله ولا يعطي به»[1].

[آخر تفسير سورة البينة، ولله الحمد والمنة]

• • •

٩٩ ـ سورة الزلزلة

مدنية وآياتها ثمان

روى الترمذي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ إذا زلزلت عدلت له بنصف القرآن»[2]. وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا زلزلت تعدل نصف القرآن، وقل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن، وقل يا أيها الكافرون تعدل ربع القرآن»[3]. وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال لرجل من أصحابه: «هل تزوجت يا فلان؟» قال: لا والله يا رسول الله، ولا عندي ما أتزوج، قال: «أليس معك قل هو الله أحد؟» قال: بلى، قال: «ثلث القرآن»، قال: «أليس معك إذا جاء نصر الله والفتح؟» قال: بلى، قال: «ربع القرآن» قال: «أليس معك قل يا أيها الكافرون؟» قال: بلى، قال: «ربع القرآن» قال: «أليس معك إذا زلزلت الأرض؟» قال: بلى، قال: «ربع القرآن، تزوج»[4].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾.

قال ابن عباس ﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها﴾: أي تحركت من أسفلها ﴿وأخرجت الأرض أثقالها﴾

(١) أخرجه الإمام أحمد.
(٢) أخرجه الترمذي، وقال: حسن غريب.
(٣) أخرجه الترمذي، وقال: غريب.
(٤) أخرجه الترمذي أيضاً، وقال: حديث حسن.

يعني ألقت ما فيها من الموتى، كقوله تعالى: ﴿إن زلزلة الساعة شيء عظيم﴾، وكقوله: ﴿وألقت ما فيها وتخلت﴾، وفي الحديث: «تلقي الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة، فيجيء القاتل فيقول في هذا قتلت، ويجيء القاطع فيقول في هذا قطعت رحمي، ويجيء السارق فيقول في هذا قطعت يدي، ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً»[١]، وقوله عزّ وجلّ: ﴿وقال الإنسان ما لها﴾ أي استنكر أمرها بعدما كانت قارة ساكنة ثابتة، وهو مستقر على ظهرها أي تقلبت الحال، فصارت متحركة مضطربة، قد جاءها من أمر الله تعالى ما قد أعده لها، من الزلزال الذي لا محيد لها عنه، ثم ألقت ما في بطنها من الأموات من الأولين والآخرين، وحينئذٍ استنكر الناس أمرها، وتبدل الأرض غير الأرض والسماوات، وبرزوا لله الواحد القهار، وقوله تعالى: ﴿يومئذٍ تحدث أخبارها﴾ أي تحدث بما عمل العاملون على ظهرها، عن أبي هريرة قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿يومئذٍ تحدث أخبارها﴾ قال: «أتدرون ما أخبارها؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها، أن تقول: عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا، فهذه أخبارها»[٢]، وفي «معجم الطبراني»، «تحفظوا من الأرض فإنها أمكم، وإنه ليس من أحد عامل عليها خيراً أو شراً إلاّ وهي مخبرة»[٣] وقوله تعالى: ﴿بأن ربك أوحى لها﴾ قال البخاري: أوحى لها، وأوحى إليها، ووحى لها، ووحى إليها، وكذا قال ابن عباس ﴿أوحى لها﴾ أي أوحى إليها، والظاهر أن هذا مضمن بمعنى أذن لها، وقال ابن عباس: ﴿يومئذٍ تحدث أخبارها﴾ قال: قال لها ربها قولي، فقالت؛ وقال مجاهد ﴿أوحى لها﴾ أي أمرها، وقال القرظي: أمرها أن تنشق عنهم، وقوله تعالى: ﴿يومئذٍ يصدر الناس أشتاتاً﴾ أي يرجعون عن موقف الحساب ﴿أشتاتاً﴾ أي أنواعاً وأصنافاً ما بين شقي وسعيد، مأمور به إلى الجنة ومأمور به إلى النار، قال ابن جريج: يتصدعون أشتاتاً فلا يجتمعون آخر ما عليهم، وقال السدي ﴿أشتاتاً﴾ فرقاً.

وقوله تعالى: ﴿ليروا أعمالهم﴾ أي ليجازوا بما عملوه في الدنيا من خير وشر، ولهذا قال: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾. روى البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «الخيل لثلاثة: لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر» الحديث. فسئل رسول الله ﷺ عن الحمر؟ فقال: «ما أنزل الله فيها شيئاً إلاّ هذه الآية الفاذة الجامعة: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾»[٤]. وروى الإمام أحمد عن صعصعة بن معاوية عم الفرزدق أنه أتى النبي ﷺ فقرأ عليه: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ قال: حسبي أن لا أسمع غيرها[٥]، وفي «صحيح البخاري» عن عدي مرفوعاً: «اتقوا النار ولو بشق تمرة ولو بكلمة طيبة»، وله أيضاً في الصحيح: «لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي، ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط»[٦]. وفي الصحيح أيضاً: «يامعشر نساء المؤمنات لا تحقرنّ جارة لجارتها ولو فرسن شاة»[٧] يعني ظلفها، وفي الحديث الآخر: «ردوا السائل ولو بظلف محرق». وعن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «يا عائشة استتري من النار ولو بشق تمرة فإنها تسد من الجائع مسدها من الشبعان»[٨]. وروي عن عائشة أنها تصدقت بعنبة وقالت: كم فيها من مثقال ذرة، وروى ابن جرير عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: لما نزلت: ﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها﴾ وأبو بكر الصديق رضي الله عنه قاعد، فبكى حين أنزلت، فقال له رسول الله ﷺ: «ما يبكيك يا أبا بكر؟» قال يبكيني هذه السورة. فقال له رسول الله ﷺ: «لولا أنكم

(١) أخرجه مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً.
(٢) أخرجه أحمد والترمذي والنسائي.
(٣) أخرجه الحافظ الطبراني.
(٤) أخرجه الشيخان واللفظ للبخاري.
(٥) أخرجه أحمد والنسائي.
(٦) أخرجه البخاري.
(٧) أخرجه البخاري أيضاً.
(٨) أخرجه أحمد.

تخطئون وتذنبون فيغفر الله لكم لخلق الله أمة يخطئون ويذنبون فيغفر لهم»[١].

وروى ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير في قول الله تعالى: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ وذلك لما نزلت هذه الآية: ﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً﴾ كان المسلمون يرون أنهم لا يؤجرون على الشيء القليل إذا أعطوه، فيجيء المسكين إلى أبوابهم، فيستقلون أن يعطوه التمرة والكسرة والجوزة ونحو ذلك فيردونه ويقولون: ما هذا بشيء إنما نؤجر على ما نعطي ونحن نحبه، وكان آخرون يرون أنهم لا يلامون على الذنب اليسير: الكذبة والنظرة والغيبة وأشباه ذلك، يقولون: إنما وعد الله النار على الكبائر، فرغبهم في القليل من الخير أن يعملوه فإنه يوشك أن يكثر، وحذرهم اليسير من الشر فإنه يوشك أن يكثر، فنزلت ﴿فمن يعمل مثقال ذرة﴾[٢] يعني وزن أصغر النمل ﴿خيراً يره﴾ يعني في كتابه ويسره ذلك قال: يكتب لكل بر وفاجر بكل سيئة سيئة واحدة وبكل حسنة عشر حسنات، فإذا كان يوم القيامة ضاعف الله حسنات المؤمنين أيضاً بكل واحدة عشراً ويمحو عنه بكل حسنة عشر سيئات فمن زادت حسناته على سيئاته مثقال ذرة دخل الجنة. وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه» وإن رسول الله ﷺ ضرب لهن مثلاً كمثل قوم نزلوا أرض فلاة، فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سواداً، وأججوا ناراً، وأنضجوا ما قذفوا فيها[٣].

[آخر تفسير سورة إذا زلزلت، ولله الحمد والمنة]

• • •

١٠٠ - سورة العاديات

مكية وآياتها إحدى عشرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

يقسم تعالى بالخيل إذا أجريت في سبيله، فعدت وضبحت، وهو الصوت الذي يسمع من الفرس حين تعدو، ﴿فالموريات قدحاً﴾ يعني اصطكاك نعالها للصخر، فتقدح منه النار، ﴿فالمغيرات صبحاً﴾ يعني الإغارة وقت الصباح كما كان رسول الله ﷺ يغير صباحاً ويستمع الأذان، فإن سمع أذاناً وإلاّ أغار، وقوله تعالى: ﴿فأثرن به نقعاً﴾ يعني غباراً في مكان معترك الخيول، ﴿فوسطن به جمعاً﴾ أي توسطن ذلك المكان كلهن جميع، روى ابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: بينا أنا في الحجر جالساً جاءني رجل فسألني عن: «العاديات ضبحاً» فقلت له: الخيل حين تغير في سبيل الله، ثم تأوي إلى الليل فيصنعون طعامهم، ويورون نارهم، فانتقل عني، فذهب إلى علي رضي الله عنه وهو عند سقاية زمزم، فسأله عن العاديات ضبحاً، فقال:

(١) أخرجه ابن جرير.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم.
(٣) أخرجه الإمام أحمد.

سألت عنهم أحداً قبلي؟ قال: نعم سألت ابن عباس، فقال: الخيل حين تغير في سبيل الله، قال: اذهب فادعه لي، فلما وقف على رأسه، قال: أتفتي الناس بما لا علم لك؟ والله لئن كان أول غزوة في الإسلام بدر، وما كان معنا إلاّ فرسان فرس للزبير وفرس للمقداد، فكيف تكون العاديات ضبحاً؟ إنما العاديات ضبحاً من عرفة إلى المزدلفة ومن المزدلفة إلى منى، وفي لفظ: «إنما العاديات ضبحاً من عرفة إلى المزدلفة، فإذا أوروا إلى المزدلفة أوروا النيران»[1]، فمذهب ابن عباس أنها الخيل[2]. وقال (علي) إنها الإبل. قال عطاء: ما ضبحت دابة قط إلاّ فرس أو كلب، وقال عطاء: سمعت ابن عباس يصف الضبح: أح أح، وقال أكثر هؤلاء في قوله: ﴿فالموريات قدحاً﴾ يعني بحوافرها، وقيل: أسعرت الحرب بين ركبانهن، وقيل: هو إيقاد النار إذا رجعوا إلى منازلهم من الليل، وقيل: المراد بذلك نيران القبائل، قال ابن جرير: والصواب الأول: الخيل حين تقدح بحوافرها، وقوله تعالى: ﴿فالمغيرات صبحاً﴾ قال ابن عباس ومجاهد: يعني إغارة الخيل صبحاً في سبيل الله، وقال من فسرها بالإبل: هو الدفع صبحاً من المزدلفة إلى منى، وقالوا كلهم في قوله: ﴿فأثرن به نقعاً﴾ هو المكان الذي حلت فيه أثارت به الغبار إما في حج أو غزو، وقوله تعالى: ﴿فوسطن به جمعاً﴾ قال ابن عباس وعطاء: يعني جمع الكفار من العدو، ويحتمل أن يكون فوسطن بذلك المكان جميعاً ويكون منصوباً على الحال المؤكدة، وقوله تعالى: ﴿إن الإنسان لربه لكنود﴾ هذا هو المقسم عليه، بمعنى أنه لنعم ربه لكفور جحود، قال ابن عباس ومجاهد: الكنود الكفور. قال الحسن: الكنود هو الذي يعد المصائب وينسى نعم الله عليه، وقوله تعالى: ﴿وإنه على ذلك لشهيد﴾ قال قتادة والثوري: وإن الله على ذلك لشهيد، ويحتمل أن يعود الضمير على الإنسان فيكون تقديره: وإن الإنسان على كونه كنوداً لشهيد، أي بلسان حاله، أي ظاهر ذلك عليه في أقواله وأفعاله كما قال تعالى: ﴿شاهدين على أنفسهم بالكفر﴾ وقوله تعالى: ﴿وإنه لحب الخير لشديد﴾ أي وإنه لحب الخير وهو المال ﴿لشديد﴾، وفيه مذهبان: (أحدهما): أن المعنى وإنه لشديد المحبة للمال، (والثاني) وإنه لحريص بخيل من محبة المال، وكلاهما صحيح، ثم قال تبارك وتعالى مزهداً في الدنيا، ومرغباً في الآخرة، ومنبهاً على ما هو كائن بعد هذه الحال، وما يستقبله الإنسان من الأهوال ﴿أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور﴾ أي أخرج ما فيها من الأموات، ﴿وحصّل ما في الصدور﴾ يعني أبرز وأظهر ما كانوا يسرون في نفوسهم، ﴿إن ربهم بهم يومئذ لخبير﴾ أي لعالم بجميع ما كانوا يصنعون، ومجازيهم عليه أوفر الجزاء، ولا يظلم مثقال ذرة.

[آخر تفسير سورة العاديات، ولله الحمد والمنة]

• • •

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٢) وإلى قول ابن عباس ذهب جمهور المفسرين، منهم مجاهد وعكرمة وعطاء وقتادة واختاره ابن جرير.

١٠١ - سورة القارعة

مكية وآياتها إحدى عشرة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْقَارِعَةُ ۝١ مَا الْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝٨ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌ ۝١١﴾.

القارعة من أسماء يوم القيامة، كالحاقة والطامة والصاخة والغاشية وغير ذلك. ثم قال تعالى معظماً أمرها ومهولاً لشأنها ﴿وما أدراك ما القارعة﴾؟ ثم فسر ذلك بقوله: ﴿يوم يكون الناس كالفراش المبثوث﴾ أي في انتشارهم وتفرقهم وذهابهم ومجيئهم، من حيرتهم مما هم فيه كأنهم فراش مبثوث، كما قال تعالى: ﴿كأنهم جراد منتشر﴾، وقوله تعالى: ﴿وتكون الجبال كالعهن المنفوش﴾ يعني صارت كأنها الصوف المنفوش الذي قد شرع في الذهاب والتمزق، قال مجاهد: «العهن» الصوف، ثم أخبر تعالى عما يؤول إليه عمل العاملين، وما يصيرون إليه من الكرامة والإهانة بحسب أعمالهم، فقال: ﴿فأما من ثقلت موازينه﴾ أي رجحت حسناته على سيئاته، ﴿فهو في عيشة راضية﴾ يعني في الجنة، ﴿وأما من خفت موازينه﴾ أي رجحت سيئاته على حسناته، ﴿فأمه هاوية﴾ قيل: معناه فهو ساقط هاو بأم رأسه في نار جهنم، وعبّر عنه بأمه يعني (دماغه)، قال قتادة: يهوي في النار على رأسه، وقيل: معناه فأمه التي يرجع إليها ويصير في المعاد إليها (هاوية) وهي اسم من أسماء النار، قال ابن جرير: وإنما قيل للهاوية أمه لأنه لا مأوى له غيرها، وقال ابن زيد: الهاوية النار هي أمه ومأواه التي يرجع إليها ويأوي إليها، وقرأ: ﴿ومأواهم النار﴾. وروي عن قتادة أنه قال: هي النار وهي مأواهم، ولهذا قال تعالى مفسراً للهاوية: ﴿وما أدراك ما هيه * نار حامية﴾، روى ابن جرير عن الأشعث بن عبد الله الأعمى قال: إذا مات المؤمن ذهب بروحه إلى أرواح المؤمنين، فيقولون: روّحوا أخاكم، فإنه كان في غم الدنيا، قال: ويسألونه ما فعل فلان؟ فيقول: مات أو ما جاءكم؟ فيقولون: ذهب به إلى أمه الهاوية[1]، وقوله تعالى: ﴿نار حامية﴾ أي حارة شديدة الحر، قوية اللهب والسعير، عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «نار بني آدم التي توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم»، قالوا: يا رسول الله إن كانت لكافية؟ فقال: «إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً»[2]. وفي رواية: «كلهن مثل حرها». وروى الإمام أحمد، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم، وضربت بالبحر مرتين، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد»[3]، وروى الترمذي وابن ماجة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت فهي سوداء مظلمة»[4]. وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «اشتكت النار إلى ربها فقالت: يا رب أكل بعضي بعضاً فأذن لها بنفسين نفس في الشتاء، ونفس في الصيف، فأشد ما

---

(١) أخرجه ابن جرير.

(٢) أخرجه مالك ورواه البخاري ومسلم بنحوه.

(٣) أخرجه الإمام أحمد.

(٤) أخرجه الترمذي وابن ماجة.

تجدون في الشتاء من بردها، وأشد ما تجدون في الصيف من حرها»[١]. وفي الصحيحين: «إذا اشتد الحر فأبردوا عن الصلاة فإن شدة الحر من فيح جهنم».

[آخر تفسير سورة القارعة، ولله الحمد والمنة]

• • •

١٠٢ ـ سورة التكاثر

مكية وآياتها ثمان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ۝٨﴾.

يقول تعالى: أشغلكم حب الدنيا ونعيمها وزهرتها عن طلب الآخرة وابتغائها، وتمادى بكم ذلك حتى جاءكم الموت وزرتم المقابر، وصرتم من أهلها، عن زيد بن أسلم قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿ألهاكم التكاثر﴾ عن الطاعة، ﴿حتى زرتم المقابر﴾ حتى يأتيكم الموت[٢]، وقال الحسن البصري: ﴿ألهاكم التكاثر﴾ في الأموال والأولاد، وعن أبيّ بن كعب قال: كنا نرى هذا من القرآن حتى نزلت: ﴿ألهاكم التكاثر﴾ يعني: «لو كان لابن آدم واد من ذهب»[٣]. وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن الشخير قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: «﴿ألهاكم التكاثر﴾ يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت؟»[٤]. وروى مسلم في «صحيحه» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول العبد: مالي مالي، وإنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو تصدّق فأمضى، وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس»[٥]، وروى البخاري عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يتبع الميت ثلاثة فيرجع اثنان ويبقى معه واحد: يتبعه أهله وماله وعمله، فيرجع أهله وماله، ويبقى عمله»[٦]. وعن أنس أن النبي ﷺ قال: «يهرم ابن آدم ويبقى معه اثنتان: الحرص والأمل»[٧]، وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة الأحنف بن قيس أنه رأى في يد رجل درهماً فقال: لمن هذا الدرهم؟ فقال الرجل: لي، فقال: إنما هو لك إذا أنفقته في أجر، أو ابتغاء شكر، ثم أنشد الأحنف متمثلاً قول الشاعر:

أنت للمال إذا أمسكته ... فإذا أنفقته فالمال لك

وقال ابن بريدة: نزلت في قبيلتين من قبائل الأنصار (بني حارثة) و(بني الحارث) تفاخروا وتكاثروا، فقالت إحداهما: فيكم مثل فلان ابن فلان وفلان، وقال الآخرون مثل ذلك تفاخروا بالأحياء، ثم قالوا: انطلقوا بنا إلى القبور فجعلت إحدى الطائفتين تقول: فيكم مثل فلان يشيرون إلى القبور، ومثل فلان. وفعل

---

(١) أخرجاه في الصحيحين.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم.
(٣) رواه البخاري في الرقاق.
(٤) أخرجه أحمد ومسلم والترمذي والنسائي.
(٥) تفرد به مسلم.
(٦) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي.
(٧) أخرجاه في الصحيحين.

الآخرون مثل ذلك، فأنزل الله: ﴿ألهاكم التكاثر * حتى زرتم المقابر﴾[١] لقد كان لكم فيما رأيتم عبرة وشغل، وقال قتادة: كانوا يقولون: نحن أكثر من بني فلان، ونحن أعد من بني فلان، حتى صاروا من أهل القبور كلهم، والصحيح أن المراد قوله: ﴿زرتم المقابر﴾ أي صرتم إليها ودفنتم فيها، كما جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ دخل على رجل من الأعراب يعوده، فقال «لا بأس طهور إن شاء الله»، فقال: قلت: طهور، بل هي حمى تفور، على شيخ كبير، تزيره القبور، قال: «فنعم إذن». وعن ميمون بن مهران قال: كنت جالساً عند عمر بن عبد العزيز فقرأ: ﴿ألهاكم التكاثر * حتى زرتم المقابر﴾ فلبث هنيهة ثم قال: يا ميمون ما أرى المقابر إلا زيارة وما للزائر بد من أن يرجع إلى منزله يعني أن يرجع إلى منزله أي إلى جنة أو إلى نار، وهكذا ذكر أن بعض الأعراب سمع رجلاً يتلو هذه الآية: ﴿حتى زرتم المقابر﴾ فقال: بعث اليوم ورب الكعبة، أي أن الزائر سيرحل من مقامه ذلك إلى غيره، وقوله تعالى: ﴿كلا سوف تعلمون * ثم كلا سوف تعلمون﴾ قال الحسن البصري هذا وعيد بعد وعيد، وقال الضحاك ﴿كلا سوف تعلمون﴾ يعني أيها الكفار، ﴿ثم كلا سوف تعلمون﴾ يعني أيها المؤمنون، وقوله تعالى: ﴿كلا لو تعلمون علم اليقين﴾ أي لو علمتم حق العلم لما ألهاكم التكاثر عن طلب الدار الآخرة حتى صرتم إلى المقابر ثم قال: ﴿لترون الجحيم * ثم لترونها عين اليقين﴾ هذا تفسير الوعيد المتقدم، وهو قوله: ﴿كلا سوف تعلمون * ثم كلا سوف تعلمون﴾ توعدهم بهذا الحال وهو رؤية أهل النار، التي إذا زفرت زفرة واحدة، خرّ كل ملك مقرب ونبي مرسل على ركبتيه، من المهابة والعظمة ومعاينة الأهوال، على ما جاء به الأثر المروي في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ثم لتسألن يومئذٍ عن النعيم﴾ أي ثم لتسألن يومئذٍ عن شكر ما أنعم الله به عليكم، من الصحة والأمن والرزق وغير ذلك، ما إذا قابلتم به نعمه من شكره وعبادته. روى ابن جرير، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما أبو بكر وعمر جالسان إذ جاءهما النبي ﷺ فقال: «ما أجلسكما ههنا؟»، قالا: والذي بعثك بالحق ما أخرجنا من بيوتنا إلا الجوع، قال: «والذي بعثني بالحق ما أخرجني غيره»، فانطلقوا حتى أتوا بيت رجل من الأنصار، فاستقبلتهم المرأة، فقال لها النبي ﷺ: «أين فلان؟» فقالت: ذهب يستعذب لنا ماء، فجاء صاحبهم يحمل قربته، فقال: مرحباً ما زار العباد شيء أفضل من نبي زارني اليوم، فعلق قربته بكرب نخلة، وانطلق فجاءهم بعذق، فقال النبي ﷺ: «ألا كنت اجتنيت»، فقال: أحببت أن تكونوا الذين تختارون على أعينكم، ثم أخذ الشفرة، فقال له النبي ﷺ: «إياك والحلوب» فذبح لهم يومئذٍ، فأكلوا فقال النبي ﷺ: «لتسألن عن هذا يوم القيامة أخرجكم الجوع، فلم ترجعوا حتى أصبتم هذا، فهذا من النعيم»[٢]. وروى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله قال: أكل رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر رطباً وشربوا ماء، فقال رسول الله ﷺ: «هذا من النعيم الذي تسألون عنه»[٣]. وروى الإمام أحمد عن محمود بن الربيع قال: لما نزلت ﴿ألهاكم التكاثر﴾ نقرأ حتى بلغ ﴿لتسألن يومئذٍ عن النعيم﴾ قالوا: يا رسول الله عن أي نعيم نسأل؟ وإنما هما الأسودان الماء والتمر، وسيوفنا على رقابنا، والعدو حاضر، فعن أي نعيم نسأل؟ قال: «أما إن ذلك سيكون»[٤].

وروى الترمذي، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «إن أول ما يسأل عنه العبد من النعيم أن يقال له ألم نصح لك بدنك، ونروك من الماء البارد؟»[٥] وروى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن الزبير

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.
(٢) أخرجه ابن جرير ورواه مسلم وأصحاب السنن الأربعة بنحوه.
(٣) أخرجه أحمد والنسائي.
(٤) أخرجه أحمد.
(٥) أخرجه الترمذي وابن حبان.

قال: قال الزبير: لما نزلت ﴿ثم لتسألن يومئذٍ عن النعيم﴾ قالوا: يا رسول الله لأي نعيم نسأل عنه وإنما هما الأسودان التمر والماء؟ قال: «إن ذلك سيكون»[1]. وفي رواية عن عكرمة: قالت الصحابة: يا رسول الله، وأي نعيم نحن فيه؟ وإنما نأكل في أنصاف بطوننا خبز الشعير؟ فأوحى إلى نبيه ﷺ: قل لهم: أليس تحتذون النعال، وتشربون الماء البارد؟ فهذا من النعيم. وعن ابن مسعود مرفوعاً: «الأمن والصحة». وقال زيد بن أسلم عن رسول الله ﷺ: ﴿ثم لتسألن يومئذٍ عن النعيم﴾ يعني شبع البطون، وبارد الشراب، وظلال المساكن، واعتدال الخلق ولذة النوم، وقال مجاهد: عن كل لذة من لذات الدنيا، وقال الحسن البصري: من النعيم الغداء والعشاء، وقول مجاهد أشمل هذه الأقوال، وقال ابن عباس: ﴿ثم لتسألن يومئذٍ عن النعيم﴾ قال: النعيم صحة الأبدان والأسماع والأبصار، يسأل الله العباد فيما استعملوها، وهو أعلم بذلك منهم، وهو قوله تعالى: ﴿إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً﴾. وثبت في «صحيح البخاري» و«سنن الترمذي» عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ»[2]، ومعنى هذا أنهم مقصرون في شكر هاتين النعمتين لا يقومون بواجبهما، ومن لا يقوم بحق ما وجب عليه فهو مغبون.

[آخر تفسير سورة التكاثر، ولله الحمد والمنة]

١٠٣ ـ سورة العصر

مكية وآياتها ثلاث

ذكر الطبراني عن عبيد الله بن حفص قال: كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا لم يفترقا إلا على أن يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر إلى آخرها، ثم يسلم أحدهما على الآخر. وقال الشافعي رحمه الله: لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾.

العصر: الزمان الذي يقع فيه حركات بني آدم من خير وشر، وقال زيد بن أسلم: هو العصر، والمشهور الأول، فأقسم تعالى بذلك على أن الإنسان لفي خسر أي في خسارة وهلاك ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ فاستثنى من جنس الإنسان عن الخسران، الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الصالحات بجوارحهم ﴿وتواصوا بالحق﴾ وهو أداء الطاعات، وترك المحرمات، ﴿وتواصوا بالصبر﴾ أي على المصائب والأقدار، وأذى من يؤذي، ممن يأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر.

[آخر تفسير سورة العصر، ولله الحمد والمنة]

• • •

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ورواه الترمذي وابن ماجة.
(٢) أخرجه البخاري.

١٠٤ ـ سورة الهمزة

مكية وآياتها تسع

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۝٣ كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ۝٦ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ۝٩ ﴾.

الهماز بالقول، واللماز بالفعل، يعني يزدري الناس وينتقص بهم، قال ابن عباس: ﴿همزة لمزة﴾ طعان معياب، وقال الربيع بن أنس: الهمزة: يهمزه في وجهه، واللمزة: من خلفه، وقال قتادة: الهمزة واللمزة لسانه وعينه، ويأكل لحوم الناس ويطعن عليهم، وقال مجاهد: الهمزة باليد والعين، واللمزة باللسان، ثم قال بعضهم: المراد بذلك (الأخنس بن شريق)، وقال مجاهد: هي عامة، وقوله تعالى: ﴿الذي جمع مالاً وعدّده﴾ أي جمعه بعضه على بعض وأحصى عدده كقوله تعالى: ﴿وجمع فأوعى﴾ قال محمد بن كعب: ألهاه ماله بالنهار، فإذا كان الليل نام كأنه جيفة منتنة. وقوله تعالى: ﴿يحسب أن ماله أخلده﴾ أي يظن أن جمعه المال يخلده في هذه الدار، ﴿كلا﴾ أي ليس الأمر كما زعم ولا كما حسب، ثم قال تعالى: ﴿لينبذن في الحطمة﴾ أي ليلقين هذا الذي جمع مالاً فعدده ﴿في الحطمة﴾ وهي اسم من أسماء النار، لأنها تحطم من فيها، ولهذا قال: ﴿وما أدراك ما الحطمة * نار الله الموقدة* التي تطلع على الأفئدة﴾ قال ثابت البناني: تحرقهم إلى الأفئدة وهم أحياء، وقال محمد بن كعب: تأكل كل شيء من جسده، حتى إذا بلغت فؤاده حذر حلقه ترجع على جسده. وقوله تعالى: ﴿إنها عليهم مؤصدة﴾ أي مطبقة كما تقدم تفسيره في سورة البلد. وقوله تعالى: ﴿في عمد ممددة﴾ أي عمد من حديد، وقال السدي: من نار، قال ابن عباس: ﴿في عمد ممددة﴾ يعني الأبواب هي الممددة، وعنه: أدخلهم في عمد ممددة عليهم بعماد، في أعناقهم السلاسل، فسدت بها الأبواب[1]. وقال قتادة: كنا نحدث أنهم يعذبون بعمد في النار، واختاره ابن جرير، وقال أبو صالح: ﴿في عمد ممددة﴾ يعني القيود الثقال.

[آخر تفسير سورة ويل لكل همزة لمزة، ولله الحمد والمنة]

(١) هذه رواية العوفي عن ابن عباس والأولى رواية عكرمة عنه.

١٠٥ ـ سورة الفيل

مكية وآياتها خمس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝﴾.

هذه من النعم التي امتن الله بها على قريش، فيما صرف عنهم من أصحاب الفيل، الذين كانوا قد عزموا على هدم الكعبة ومحو أثرها من الوجود، فأبادهم الله، وأرغم آنافهم، وخيب سعيهم، وأضل عملهم وردهم بشر خيبة، وهذه قصة أصحاب الفيل على وجه الإيجاز والاختصار: يروى أن أبرهة الأشرم بنى كنيسة هائلة بصنعاء، رفيعة البناء عالية الفناء مزخرفة الأرجاء، سمتها العرب (القليس) لارتفاعها، لأن الناظر إليها تكاد تسقط قلنسوته عن رأسه من ارتفاع بنائها، وهزم أبرهة على أن يصرف حج العرب إليها كما يحج إلى الكعبة بمكة، ونادى بذلك في مملكته، فكرهت العرب ذلك، وغضبت قريش، لذلك غضباً شديداً، حتى قصدها بعضهم وتوصل إلى أن دخلها، فأحدث فيها وكز راجعاً، فلما رأى السدنة ذلك الحدث رفعوا أمره إلى ملكهم (أبرهة) وقالوا له: إنما صنع هذا بعض قريش غضباً لبيتهم الذي ضاهيت هذا به، فأقسم أبرهة ليسيرن إلى بيت مكة وليخربنه حجراً حجراً، وذكر مقاتل أن فتية من قريش دخلوها، فأججوا فيها ناراً، وكان يوماً فيه هواء شديد فاحترقت، فتأهب أبرهة لذلك، وصار في جيش كثيف عرمرم لئلا يصده أحد عنه، واستصحب معه فيلاً عظيماً كبير الجثة لم ير مثله، يقال له (محمود)، ويقال: كان معه اثنا عشر فيلاً غيره، فلما سمعت العرب بمسيره أعظموا ذلك جداً، ورأوا أن حقاً عليهم المحاجبة دون البيت، ورد من أراده بكيد، فخرج إليه رجل من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له (ذو نفر) فدعا قومه إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله، فأجابوه وقاتلوا أبرهة فهزمهم، ثم مضى لوجهه حتى إذا كان بأرض خثعم اعترض له (نفيل بن حبيب) الخثعمي في قومه فقاتلوه، فهزمهم أبرهة وأسر نفيل بن حبيب، فأراد قتله ثم عفا عنه، واستصحبه معه ليدله في بلاد الحجاز، فلما اقترب من أرض الطائف خرج إليه أهلها ثقيف وصانعوه خيفة على بيتهم الذي عندهم الذي يسمونه اللات، فأكرمهم وبعثوا معه (أبا رغال) دليلاً، فلما انتهى أبرهة إلى المغمس وهو قريب من مكة نزل به، وأغار جيشه على سرح أهل مكة من الإبل وغيرها، فأخذوه، وكان في السرح مائتا بعير لعبد المطلب، وبعث أبرهة حناطة الحِمْيَري إلى مكة، وأمره أن يأتيه بأشرف قريش، وأن يخبره أن الملك لم يجيء لقتالكم إلاّ أن تصدُّوه عن البيت، فجاء حناطة فدل على عبد المطلب بن هاشم وبلغه عن أبرهة ما قال: فقال له عبد المطلب: والله ما نريد حربه، وما لنا بذلك من طاقة، هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم، فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه، وإن يخلي بينه وبينه، فوالله ما عندنا دفع عنه، فقال له حناطة: فاذهب معي إليه، فذهب معه، فلما رآه أبرهة أجله ـ وكان عبد المطلب رجلاً جسيماً حسن المنظر ـ ونزل أبرهة عن سريره وجلس معه على البساط، وقال لترجمانه: قل له ما حاجتك؟ فقال للترجمان: إن حاجتي أن يرد عليّ الملك مائتي بعير أصابها لي، فقال أبرهة لترجمانه: قل له: لقد كنت أعجبتني حين رأيتك، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني، أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك، قد جئت

لهدمه لا تكلمني فيه؟ فقال له عبد المطلب: إني أنا رب الإبل، وإن للبيت رباً سيمنعه، قال: ما كان ليمتنع مني، قال: أنت وذاك، ويقال: إنه ذهب مع عبد المطلب جماعة من أشراف العرب، فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عن البيت، فأبى عليهم، ورد أبرهة على عبد المطلب إبله، ورجع عبد المطلب إلى قريش، فأمرهم بالخروج من مكة، والتحصن في رؤوس الجبال تخوفاً عليهم من معرة الجيش، ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة، وقام معه نفر من قريش يدعون الله، ويستنصرون على أبرهة وجنده، فقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة:

لاهُمَّ إنَّ المرء يَمْـ ... ـنَعُ رَحْلَهُ فامنع رحالك
وانصر على آل الصليب ... وعابديه اليوم آلك
لا يغلبنَّ صليبهم ... ومحالهم أبداً محالك

ثم خرجوا إلى رؤوس الجبال. وذكر مقاتل أنهم تركوا عند البيت مائة بدنة مقلدة، لعل بعض الجيش ينال منها شيئاً بغير حق فينتقم الله منهم، فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة وهيأ جيشه، فلما وجهوا الفيل نحو مكة، برك الفيل، وخرج (نفيل بن حبيب) يشتد حتى صعد في الجبل، وضربوا الفيل ليقوم، فأبى، فضربوا في رأسه بالطبرزين وأدخلوا محاجن لهم في مراقه، فنزعوه بها ليقوم فأبى، فوجهوه راجعاً إلى اليمن، فقام يهرول، ووجهوه إلى الشام، ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى المشرق، ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى مكة فبرك، وأرسل الله عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها: حجر في منقاره وحجران في رجليه أمثال الحمص والعدس، لا يصيب منهم أحداً إلا هلك، وليس كلهم أصابت، وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق، ويسألون عن (نفيل) ليدلهم على الطريق، هذا ونفيل على رأس الجبل مع قريش، وعرب الحجاز ينظرون ماذا أنزل الله بأصحاب الفيل من النقمة، وجعل نفيل يقول:

أين المفر والإله الطالب ... والأشرم المغلوب ليس الغالب

وذكر الواقدي بإسناده: أنهم لما تعبأوا لدخول الحرم، وهيأوا الفيل جعلوا لا يصرفونه إلى جهة من سائر الجهات إلا ذهب فيها، فإذا وجهوه إلى الحرم ربض وصاح، وجعل أبرهة يحمل على سائس الفيل وينهره ويضربه ليقهر الفيل على دخول الحرم، وعبد المطلب وجماعة من أشراف مكة على حراء ينظرون ما الحبشة يصنعون، وماذا يلقون من أمر الفيل وهو العجب العجاب، فبينما هم كذلك إذ بعث الله عليهم ﴿طيراً أبابيل﴾ أي قطعاً قطعاً صفراً دون الحمام وأرجلها حمر، ومع كل طائر ثلاثة أحجار، وجاءت فحلقت عليهم، وأرسلت تلك الأحجار عليهم فهلكوا، قال عطاء: ليس كلهم أصابه العذاب في الساعة الراهنة، بل منهم من هلك سريعاً، ومنهم من جعل يتساقط عضواً عضواً، وهم هاربون، وكان أبرهة ممن تساقط عضواً عضواً حتى مات ببلاد خثعم، قال ابن إسحاق: فلما بعث الله محمداً ﷺ، كان فيما يعد به على قريش من نعمته عليهم وفضله، ما رد عليهم من أمر الحبشة لبقاء أمرهم ومدتهم فقال: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل﴾ إلى قوله: ﴿فجعلهم كعصف مأكول﴾، وقوله: ﴿لإيلاف قريش * إيلافهم رحلة الشتاء والصيف * فليعبدوا رب هذا البيت * الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾. قال ابن هشام: «الأبابيل» الجماعات ولم تتكلم العرب بواحدة قال: وأما «السجيل» فأخبرني يونس النحوي أنه عند العرب الشديد الصلب، و«العصف» ورق الزرع الذي لم يقضب واحدته عصفة. انتهى ما ذكره. وقال ابن عباس والضحاك: أبابيل يتبع بعضها بعضاً، وقال الحسن البصري وقتادة: الأبابيل الكثيرة، وقال مجاهد «أبابيل» شتى متتابعة مجتمعة، وقال ابن زيد: «الأبابيل» المختلفة تأتي من ههنا، ومن ههنا، أتتهم من كل مكان، وقال عكرمة: كانت طيراً خضراً خرجت من البحر لها رؤوس كرؤوس السباع. وعن ابن عباس ومجاهد: كانت الطير الأبابيل مثل التي يقال لها عنقاء مغرب، وقال عبيد بن عمير: لما أراد الله أن يهلك أصحاب الفيل بعث عليهم طيراً أنشئت من البحر أمثال الخطاطيف، كل طير

منها يحمل ثلاثة أحجار حجرين في رجليه وحجراً في منقاره، قال: فجاءت حتى صفت على رؤوسهم ثم صاحت وألقت ما في أرجلها ومناقيرها، فما يقع على رأس رجل إلاّ خرج من دبره، ولا يقع على شيء من جسده إلاّ خرج من الجانب الآخر، وبعث الله ريحاً شديدة فضربت الحجارة فزادتها شدة فأهلكوا جميعاً. وقال ابن عباس ﴿حجارة من سجيل﴾ قال: طين في حجارة.

وقوله تعالى: ﴿فجعلهم كعصف مأكول﴾ قال سعيد بن جبير: يعني التبن الذي تسميه العامة هبور، وقال ابن عباس: العصف القشرة التي على الحبة كالغلاف على الحنطة، وقال ابن زيد: العصف ورق الزرع، وورق البقل إذا أكلته البهائم فرائته فصار دريناً، المعنى أن الله سبحانه وتعالى أهلكهم ودمرهم وردهم بكيدهم وغيظهم، لم ينالوا خيراً، وأهلك عامتهم ولم يرجع منهم مخبر إلاّ وهو جريح، كما يروى لأمية بن أبي الصلت بن ربيعة قوله:

إن آيات ربنا باقيات ... ما يماري فيهن إلاّ الكفور
خلق الليل والنهار فكلٌ ... مستبين حسابه مقدور
ثم يجلو النهار رب رحيم ... بمهاة شعاعها منشور
حبس الفيل بالمغمّس حتى ... صار يحبو كأنه معقور
خلّفوه ثم ابذعرّوا جميعاً ... كلهم عظم ساقه مكسور
كل دين يوم القيامة عند ... الله إلاّ دين الحنيفة يور

وقد قدمنا في تفسير سورة الفتح أن رسول الله ﷺ لما أطل يوم الحديبية على الثنية التي تهبط به على قريش بركت ناقته، فزجرها فألحت، فقالوا: خلأت القصواء، أي حرنت، فقال رسول الله ﷺ: «ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل»، ثم قال: «والذي نفسي بيده لا يسألوني اليوم خطة يعظمون فيها حرمات الله إلاّ أجبتهم إليها»، ثم زجرها فقامت[1]. وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال يوم فتح مكة: «إن الله حبس عن مكة الفيل وسلّط عليها رسوله والمؤمنين، وإنه قد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، ألا فيبلغ الشاهد الغائب».

[آخر تفسير سورة الفيل، ولله الحمد والمنة]

• • •

١٠٦ - سورة قريش

مكية وآياتها اربع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ
جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤)﴾.

هذه السورة مفصولة عن التي قبلها في المصحف الإمام، كتبوا بينهما سطر (بسم الله الرحمن الرحيم) وإن كانت متعلقة بما قبلها، كما صرح بذلك محمد بن إسحاق وعبد الرحمن بن زيد، لأن المعنى عندهما: حبسنا عن مكة الفيل، وأهلكنا أهله ﴿لإيلاف قريش﴾ أي لائتلافهم واجتماعهم في بلدهم آمنين، وقيل: المراد بذلك ما كانوا يألفونه من الرحلة في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام في المتاجر وغير ذلك، ثم يرجعون إلى بلدهم آمنين في أسفارهم، لعظمتهم عند الناس لكونهم سكان حرم الله، فمن عرفهم احترمهم ومن سار معهم أمن بهم، وهذا حالهم في أسفارهم ورحلتهم في شتائهم وصيفهم، وأما في حال إقامتهم في البلد فكما قال الله تعالى: ﴿أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿لإيلاف قريش * إيلافهم﴾ بدل من الأول ومفسر له، ولهذا قال تعالى: ﴿إيلافهم رحلة الشتاء والصيف﴾ وقال ابن جرير: الصواب أن اللام لام التعجب، كأنه يقول: اعجبوا لإيلاف قريش ونعمتي عليهم في ذلك، قال: وذلك لإجماع المسلمين على أنهما سورتان منفصلتان مستقلتان، ثم أرشدهم إلى شكر هذه النعمة العظيمة فقال: ﴿فليعبدوا رب هذا البيت﴾ أي فليوحدوه بالعبادة كما جعل لهم حرماً آمناً وبيتاً محرماً، كما قال تعالى: ﴿إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها﴾ وقوله تعالى: ﴿الذي أطعمهم من جوع﴾ أي هو رب البيت وهو الذي أطعمهم من جوع ﴿وآمنهم من خوف﴾ أي تفضل عليهم بالأمن والرخص، فليفردوه بالعبادة وحده لا شريك له، ولا يعبدوا من دونه صنماً ولا نداً ولا وثناً، ولهذا من استجاب لهذا الأمر، جمع الله له بين أمن الدنيا وأمن الآخرة، ومن عصاه سلبهما منه، كما قال تعالى: ﴿ضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾، عن أسامة بن زيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «﴿لإيلاف قريش * إيلافهم رحلة الشتاء والصيف﴾ ويحكم يا معشر قريش اعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمكم من جوع وآمنكم من خوف»[١].

[آخر تفسير سورة لإيلاف قريش، ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) قال ابن كثير: صوابه عن أسماء بنت يزيد بن السكن (أم سلمة) الأنصارية رضي الله عنها، لا عن أسامة بن زيد ولعله وقع خطأ في النسخة أو في أصل الرواية.

١٠٧ ـ سورة الماعون

مكية وآياتها سبع

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾.

يقول تعالى: ﴿أرأيت﴾ يا محمد ﴿الذي يكذب بالدين﴾ وهو المعاد والجزاء والثواب ﴿فذلك الذي يدع اليتيم﴾ أي هو الذي يقهر اليتيم ولا يطعمه ولا يحسن إليه ﴿ولا يحض على طعام المسكين﴾ كقوله ﴿ولا تحاضون على طعام المسكين﴾، ثم قال تعالى: ﴿فويل للمصلين * الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾ قال ابن عباس: يعني المنافقين الذين يصلون في العلانية، ولا يصلون في السر، ولهذا قال: ﴿للمصلين﴾ الذين هم من أهل الصلاة ثم هم عنها ساهون، إما عن فعلها بالكلية، أو يخرجها عن وقتها، وقال عطاء بن دينار: الحمد لله الذي قال: ﴿عن صلاتهم ساهون﴾ ولم يقل «في صلاتهم ساهون» فيؤخرونها إلى آخر الوقت، أو لا يؤدونها بأركانها وشروطها عن الخشوع فيها والتدبر لمعانيها، فاللفظ يشمل ذلك كله، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، يجلس يرقب الشمس، حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقر أربعاً، لا يذكر الله فيها إلاّ قليلاً»[١]، فهذا آخر صلاة العصر التي هي الوسطى ـ كما ثبت به النص ـ إلى آخر وقتها، وهو وقت كراهة، ثم قام إليها فنقرها نقر الغراب، لم يطمئن ولاخشع فيها أيضاً، ولهذا قال: «لا يذكر الله فيها إلاّ قليلاً» ولعله إنما حمله على القيام إليها مراءاة الناس، لا ابتغاء وجه الله، فهو كما إذا لم يصل بالكلية، قال الله تعالى: ﴿إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلاّ قليلاً﴾، وقال تعالى ههنا: ﴿الذين هم يراؤون﴾، وروى الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «إن في جهنم لواديا تستعيذ جهنم من ذلك الوادي في كل يوم أربعمائة مرة، أعدّ ذلك الوادي للمرائين من أمة محمد: لحامل كتاب الله، وللمصدق في غير ذات الله، وللحاج إلى بيت الله، وللخارج في سبيل الله»[٢].

وروى الإمام أحمد عن عمرو بن مرة قال: كنا جلوساً عند أبي عبيدة، فذكروا الرياء، فقال رجل يكنى بأبي يزيد: سمعت عبد الله بن عمرو يقول: قال رسول الله ﷺ: «من سمّع الناس بعمله سمّع الله به سامع خلقه وحقره وصغّره»[٣]، ومما يتعلق بقوله تعالى: ﴿الذين هم يراؤون﴾ أن من عمل عملاً لله فاطلع عليه الناس فأعجبه ذلك أن هذا لا يعد رياء، لما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنت أصلي، فدخل عليّ رجل، فأعجبني ذلك فذكرته لرسول الله ﷺ فقال: «كتب لك أجران: أجر السر، وأجر العلانية»[٤]. وفي رواية عنه قال: قال رجل: يا رسول الله! الرجل يعمل العمل يسره فإذا اطلع عليه أعجبه قال: قال رسول الله ﷺ: «له أجران: أجر السر وأجر العلانية»[٥]. وعن سعد بن أبي وقاص قال: سألت رسول الله ﷺ عن ﴿الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾ قال: «هم الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها»[٦]، قلت:

---

(١) أخرجه الشيخان.
(٢) أخرجه الطبراني.
(٣) أخرجه أحمد.
(٤) أخرجه الحافظ الموصلي.
(٥) أخرجه الترمذي والطيالسي وأبو يعلى الموصلي.
(٦) أخرجه ابن جرير الطبري.

وتأخير الصلاة عن وقتها يحتمل تركها بالكلية، ويحتمل صلاتها بعد وقتها شرعاً، أو تأخيرها عن أول الوقت.

وقوله تعالى: ﴿ويمنعون الماعون﴾ أي لا أحسنوا عبادة ربهم، ولا أحسنوا إلى خلقه، حتى ولا بإعارة ما ينتفع به مع بقاء عينه ورجوعه إليهم، فهؤلاء لمنع الزكاة وأنواع القربات أولى وأولى. وقد قال مجاهد ﴿الماعون﴾ الزكاة، وقال الحسن البصري: إن صلى راءى، وإن فاتته لم يأس عليها، ويمنع زكاة ماله، وفي لفظ: صدقة ماله، وقال زيد بن أسلم: هم المنافقون ظهرت الصلاة فصلوها، وخفيت الزكاة فمنعوها. وسئل ابن مسعود عن الماعون؟ فقال: هو ما يتعاطاه الناس بينهم من الفأس والقدر والدلو وأشباه ذلك، وقال ابن جرير، عن عبد الله قال: «كنا أصحاب محمد ﷺ نتحدث أن الماعون الدلو والفأس والقدر لا يستغنى عنهن»، ولفظ النسائي عن عبد الله قال: كل معروف صدقة، وكنا نعد الماعون على عهد رسول الله ﷺ عارية الدلو والقدر، وعن ابن عباس: ﴿ويمنعون الماعون﴾ يعني متاع البيت، وكذا قال مجاهد والنخعي أنها العارية للأمتعة، وقد اختلف الناس في ذلك، فمنهم من قال: يمنعون الزكاة، ومنهم من قال: يمنعون الطاعة، ومنهم من قال: يمنعون العارية، وعن علي: الماعون منع الناس الفأس والقدر والدلو، وقال عكرمة: رأس الماعون زكاة المال وأدناه المنخل والدلو والإبرة، وهذا الذي قاله عكرمة حسن، فإنه يشمل الأقوال كلها، وترجع كلها إلى شيء واحد، وهو ترك المعاونة بمال أو منفعة، ولهذا جاء في الحديث: «كل معروف صدقة».

[آخر تفسير سورة الماعون، ولله الحمد والمنة]

١٠٨ ـ سورة الكوثر

مكية وآياتها ثلاث

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝٣﴾.

روى مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بينا رسول الله ﷺ بين أظهرنا في المسجد إذْ أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسه مبتسماً قلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: «لقد أنزلت عليّ آنفاً سورة» فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إنا أعطيناك الكوثر * فصلّ لربك وانحر * إن شانئك هو الأبتر﴾، ثم قال: «أتدرون ما الكوثر؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنه نهر في الجنة وعدنيه ربي عزّ وجلّ عليه خير كثير، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة آنيته عدد النجوم في السماء فيختلج العبد منهم، فأقول: رب إنه من أمتي، فيقول: إنك لا تدري ما أحدث بعدك»[1]، وقد استدل كثير من القراء على أن هذه السورة مدنية، فأما قوله تعالى: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ فقد تقدم في هذا الحديث أنه نهر في الجنة، وقد روى الإمام أحمد عن أنس أنه قرأ هذه الآية: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت الكوثر فإذا هو نهر يجري ولم يشق شقاً، وإذا حافتاه قباب اللؤلؤ فضربت بيدي في تربته، فإذا مسك أذفر، وإذا حصباؤه اللؤلؤ»[2]. وعن

(١) أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي.
(٢) أخرجه الإمام أحمد.

أنس بن مالك قال: لما عرج بالنبي ﷺ إلى السماء قال: «أتيت على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر»[1]. وروى ابن جرير، عن أنس بن مالك قال: لما أسري برسول الله ﷺ مضى به جبريل في السماء الدنيا، فإذا هو بنهر عليه قصر من اللؤلؤ وزبرجد، فذهب يشم ترابه، فإذا هو مسك، قال: «يا جبريل ما هذا النهر؟» قال: هو الكوثر الذي خبأ لك ربك؛ وفي رواية عن أنس قال: سئل رسول الله ﷺ عن الكوثر؟ فقال: «هو نهر أعطانيه الله تعالى في الجنة ترابه مسك، أبيض من اللبن، وأحلى من العسل، ترده طير أعناقها مثل أعناق الجزر»، قال أبو بكر: يا رسول الله إنها لناعمة؟ قال: «آكلها أنعم منها». وقال البخاري: حدّثنا خالد بن يزيد الكاهلي، حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن أبي عبيدة عن عائشة رضي الله عنها؛ قال: سألتها عن قوله تعالى: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ قالت: «نهر أعطيه نبيكم ﷺ شاطئاه عليه در مجوف آنيته كعدد النجوم»[2]. وعن عائشة قالت: الكوثر نهر في الجنة شاطئاه در مجوف، وقال إسرائيل: نهر في الجنة عليه من الآنية عدد نجوم السماء، وعن مسروق قال: قلت لعائشة: يا أم المؤمنين حدّثيني عن الكوثر؟ قالت: نهر في بطنان الجنة، قلت: وما بطنان الجنة؟ قالت: وسطها، حافتاه قصور اللؤلؤ والياقوت، ترابه المسك، وحصباؤه اللؤلؤ والياقوت[3].

وقال البخاري، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في الكوثر: هو الخير الذي أعطاه الله إياه، قال أبو بشر: قلت لسعيد بن جبير: فإن ناساً يزعمون أنه نهر في الجنة، فقال سعيد: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه[4]. وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: الكوثر الخير الكثير، وهذا التفسير يعم النهر وغيره، لأن الكوثر من الكثرة وهو الخير الكثير، ومن ذلك النهر كما قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد، حتى قال مجاهد: هو الخير الكثير في الدنيا والآخرة، وقال عكرمة: هو النبوة والقرآن وثواب الآخرة، وقد صح عن ابن عباس أنه فسره بالنهر أيضاً، فقال ابن جرير: عن ابن عباس قال: «الكوثر نهر في الجنة، حافتاه ذهب وفضة، يجري على الياقوت والدر، ماؤه أبيض من الثلج، وأحلى من العسل». وعن ابن عمر أنه قال: الكوثر نهر في الجنة حافتاه ذهب وفضة، يجري على الدر والياقوت، ماؤه أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل[5]. وقد روي مرفوعاً فقال الإمام أحمد: عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «الكوثر نهر في الجنة، حافتاه من ذهب، والماء يجري على اللؤلؤ، وماؤه أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل»[6]. وروى ابن جرير عن عطاء بن السائب قال: قال لي محارب بن دثار ما قال سعيد بن جبير في الكوثر، قلت: حدثنا عن ابن عباس أنه قال: هو الخير الكثير، فقال: صدق الله إنه للخير الكثير؛ ولكن حدثنا ابن عمر قال: لما نزلت ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ قال رسول الله ﷺ: «الكوثر نهر في الجنة حافتاه من ذهب يجري على الدر والياقوت». وهكذا روي عن أنس وأبي العالية ومجاهد وغير واحد من السلف أن الكوثر نهر في الجنة، وقال عطاء: هو حوض في الجنة.

وقوله تعالى: ﴿فصلِّ لربك وانحر﴾ أي كما أعطيناك الخير الكثير في الدنيا والآخرة ومن ذلك النهر الذي تقدم صفته، فأخلص لربك صلاتك المكتوبة والنافلة وتحرك فاعبده وحده لا شريك له، وانحر على اسمه وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين * لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين﴾ قال ابن عباس: يعني بذلك نحر البدن ونحوها، وقيل: المراد بقوله: ﴿وانحر﴾ وضع اليد اليمنى على اليسرى تحت النحر، وقيل: ﴿وانحر﴾ أي استقبل بتحرك القبلة،

(١) أخرجه البخاري.
(٢) أخرجه ابن جرير.
(٣) أخرجه الترمذي موقوفاً.
(٤) أخرجه البخاري.
(٥) رواه الترمذي وابن ماجة، وقال الترمذي: حسن صحيح.

والصحيح القول الأول: أن المراد بالنحر ذبح المناسك، ولهذا كان رسول الله ﷺ يصلي العيد ثم ينحر نسكه ويقول: «من صلى صلاتنا ونسك نسكنا فقد أصاب النسك، ومن نسك قبل الصلاة فلا نسك له» الحديث.

قال ابن جرير: والصواب قول من قال: إن معنى ذلك فاجعل صلاتك كلها لربك خالصاً، دون ما سواه من الأنداد والآلهة، وكذلك نحرك اجعله له دون الأوثان، شكراً له على ما أعطاك من الكرامة والخير الذي لا كفاء له وخصك به، وهذا الذي قاله في غاية الحسن، وقوله تعالى: ﴿إن شانئك هو الأبتر﴾ أي إن مبغضك يا محمد، ومبغض ما جئت به من الهدى والحق، والبرهان الساطع والنور المبين ﴿هو الأبتر﴾ الأقل الأذل المنقطع ذكره، قال ابن عباس ومجاهد: نزلت في العاص بن وائل، وقال يزيد بن رومان: قال: كان العاص بن وائل إذا ذكر رسول الله ﷺ يقول: دعوه فإنه رجل أبتر لا عقب له، فإذا هلك انقطع ذكره، فأنزل الله هذه السورة، وقيل: نزلت في عقبة بن أبي معيط، وقال عطاء: نزلت في (أبي لهب) وذلك حين مات ابن لرسول الله ﷺ، فذهب أبو لهب إلى المشركين، فقال: بتر محمد الليلة فأنزل الله في ذلك: ﴿إن شانئك هو الأبتر﴾، وعن ابن عباس: نزلت في (أبي جهل) وعنه ﴿إن شانئك﴾ يعني عدوك، وهذا يعم جميع من اتصف بذلك ممن ذكر وغيرهم، وقال عكرمة: الأبتر الفرد، وقال السدي: كانوا إذا مات ذكور الرجل، قالوا: بتر، فلما مات أبناء رسول الله ﷺ، قالوا: بتر محمد، فأنزل الله: ﴿إن شانئك هو الأبتر﴾، وهذا يرجع إلى ما قلناه من أن الأبتر الذي إذا مات انقطع ذكره. فتوهموا لجهلهم أنه إذا مات بنوه انقطع ذكره، وحاشا وكلا، بل قد أبقى الله ذكره على رؤوس الأشهاد، وأوجب شرعه على رقاب العباد، مستمراً على دوام الآباد، إلى يوم المحشر والمعاد، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم التناد.

[آخر تفسير سورة الكوثر، ولله الحمد والمنة]

• • •

١٠٩ ـ سورة الكافرون

مكية وآياتها ست

ثبت في «صحيح مسلم»، عن جابر: أن رسول الله ﷺ قرأ بهذه السورة، وبقل هو الله أحد، في ركعتي الطواف[١]، وفي «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قرأ بهما في ركعتي الفجر، وقد تقدم في الحديث أنها تعدل ربع القرآن، وروى الطبراني أن رسول الله ﷺ كان إذا أخذ مضجعه قرأ ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ حتى يختمها[٢]، وعن الحارث بن جبلة قال: قلت: يا رسول الله علمني شيئاً أقوله عند منامي، قال: «إذا أخذت مضجعك من الليل فاقرأ ﴿يا أيها الكافرون﴾ فإنها براءة من الشرك»[٣]، والله أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٣ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ۝٤ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾.

(١) أخرجه مسلم.
(٢) أخرجه الطبراني.
(٣) أخرجه الإمام أحمد.

هذه سورة البراءة من العمل الذي يعمله المشركون، فقوله تعالى: ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ يشمل كل كافر على وجه الأرض، ولكن الموجهون بهذا الخطاب هم (كفار قريش) دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة أوثانهم سنة، ويعبدون معبوده سنة، فأنزل الله هذه السورة وأمر رسوله ﷺ فيها أن يتبرأ من دينهم بالكلية. فقال: ﴿لا أعبد ما تعبدون﴾ يعني من الأصنام والأنداد، ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ وهو الله وحده لا شريك له، ثم قال: ﴿ولا أنا عابد ما عبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾، أي ولا أعبد عبادتكم أي ولا أسلكها ولا أقتدي بها، وإنما أعبد الله على الوجه الذي يحبه ويرضاه، ولهذا قال: ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ أي لا تقتدون بأوامر الله وشرعه في عبادته، بل قد اخترعتم شيئاً من تلقاء أنفسكم، كما قال: ﴿إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس﴾ فتبرأ منهم في جميع ما هم فيه، ولهذا كان كلمة الإسلام «لا إله إلا الله محمد رسول الله» أي لا معبود إلا الله، ولا طريق إليه إلا بما جاء به الرسول ﷺ، والمشركون يعبدون غير الله عبادة لم يأذن الله بها، ولهذا قال: ﴿لكم دينكم ولي دين﴾، كما قال تعالى: ﴿وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم﴾، وقال: ﴿لنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾، وقال البخاري ﴿لكم دينكم﴾ الكفر، ﴿ولي دين﴾ الإسلام، ولم يقل: ديني، لأن الآيات بالنون فحذف الياء، كما قال: ﴿فهو يهدين﴾ ﴿ويشفين﴾، وقال غيره: ﴿لا أعبد ما تعبدون﴾ الآن ولا أجيبكم بما بقي من عمري ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾، ونقل ابن جرير عن بعض أهل العربية أن ذلك من باب التأكيد كقوله: ﴿فإن مع العسر يسراً * إن مع العسر يسراً﴾ فهذه ثلاثة أقوال: أولها: ما ذكرناه أولاً. الثاني: ما حكاه البخاري وغيره من المفسرين أن المراد: ﴿لا أعبد ما تعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ في الماضي ﴿ولا أنا عابد ما عبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ في المستقبل. الثالث: أن ذلك تأكيد محض. وثمّ قول رابع نصره ابن تيمية في بعض كتبه، وهو أن المراد بقوله: ﴿لا أعبد ما تعبدون﴾ نفي الفعل لأنها جملة فعلية، ﴿ولا أنا عابد ما عبدتم﴾ نفي قبوله لذلك بالكلية، لأن النفي بالجملة الاسمية آكد، فكأنه نفي الفعل، وكونه قابلاً لذلك، ومعناه نفي الوقوع، ونفي الإمكان الشرعي أيضاً، وهو قول حسن أيضاً، والله أعلم.

[آخر تفسير سورة قل يا أيها الكافرون، ولله الحمد والمنة]

• • •

١١٠ ـ سورة النصر

مدنية وآياتها ثلاث

روى الحافظ أبو بكر البزار، عن ابن عمر قال: أنزلت هذه السورة ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ على رسول الله ﷺ أوسط أيام التشريق، فعرف أنه الوداع، فأمر براحلته القصواء فرحلت، ثم قام فخطب الناس فذكر خطبته المشهورة[1]، وروى الحافظ البيهقي، عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ دعا رسول الله ﷺ فاطمة، وقال: «إنه قد نعيت إليّ نفسي» فبكت ثم ضحكت، وقالت: أخبرني أنه نعيت إليه نفسه، فبكيت، ثم قال: «اصبري فإنك أول أهلي لحاقاً بي» فضحكت[2].

---

(١) أخرجه البزار والبيهقي.

(٢) أخرجه البيهقي ورواه النسائي بنحوه بدون ذكر فاطمة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾.

روى البخاري، عن ابن عباس قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه، فقال: لم يدخل هذا معنا، ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه ممن قد علمتم، فدعاهم ذات يوم فأدخله معهم، فما رأيت أنه دعاني يومئذٍ إلاّ ليريهم، فقال: ما تقولون في قول الله عزّ وجلّ ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً، فقال لي: أكذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا، فقال: ما تقول؟ فقلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له قال: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ فذلك علامة أجلك ﴿فسبّح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً﴾ فقال عمر بن الخطاب: لا أعلم منها إلاّ ما تقول[1]. وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ قال رسول الله ﷺ: «نعيت إليّ نفسي» فإنه مقبوض في تلك السنة، وهكذا قال مجاهد والضحاك وغير واحد إنها أجل رسول الله ﷺ نعي إليه، وعن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ حتى ختم السورة قال: نعيت لرسول الله ﷺ نفسه حين نزلت، قال: فأخذ بأشد ما كان قط اجتهاداً في أمر الآخرة، وقال رسول الله ﷺ بعد ذلك: «جاء الفتح ونصر الله، وجاء أهل اليمن»، فقال رجل: يا رسول الله وما أهل اليمن؟ قال: «قوم رقيقة قلوبهم، لينة طباعهم، الإيمان يمان والفقه يمان»[2]، وقد ثبت أن رسول الله ﷺ قال يوم الفتح: «لا هجرة ولكن جهاد ونية، ولكن إذا استنفرتم فانفروا»[3]، فالذي فسر به بعض الصحابة من جلساء عمر رضي الله عنهم أجمعين من أنه قد أمرنا إذا فتح الله علينا المدائن والحصون، أن نحمد الله ونشكره ونسبّحه، يعني نصلي له ونستغفره، معنى مليح صحيح، وقد ثبت له شاهد من صلاة النبي ﷺ يوم فتح مكة وقت الضحى ثماني ركعات، فيستحب لأمير الجيش إذا فتح بلداً أن يصلي فيه أول ما يدخله ثماني ركعات، وهكذا فعل سعد بن أبي وقاص يوم فتح المدائن، وأما ما فسر به ابن عباس وعمر رضي الله تعالى عنهما من أن هذه السورة نعي فيها إلى رسول الله ﷺ روحه الكريمة، وأعلم أنك إذا فتحت مكة وهي قريتك التي أخرجتك ودخل الناس في دين الله أفواجاً، فقد فرغ شغلنا بك في الدنيا فتهيأ للقدوم علينا والوفود إلينا فللآخرة خير لك من الدنيا، ولسوف يعطيك ربك فترضى، ولهذا قال: ﴿فسبّح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً﴾.

روى البخاري، عن مسروق، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي» يتأول القرآن[4]، وقالت عائشة: كان رسول الله ﷺ يكثر في آخر أمره من قول: «سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه»، وقال: «إن ربي كان أخبرني أني سأرى علامة في أمتي، وأمرني إذا رأيتها أن أسبح بحمده وأستغفره إنه كان تواباً، فقد رأيتها ﴿إذا جاء نصر الله والفتح * ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً * فسبّح بحمد ربك واستغفره إنه كان

(١) أخرجه البخاري في صحيحه.
(٢) أخرجه الطبراني والنسائي.
(٣) أخرجه البخاري ومسلم.
(٤) أخرجه البخاري وبقية الجماعة إلاّ الترمذي.

توابا﴾[1] . والمراد بالفتح ههنا فتح مكة قولاً واحداً، فإن أحياء العرب كانت تتلوم بإسلامها فتح مكة يقولون: إن ظهر على قومه فهو نبي، فلما فتح الله عليه مكة دخلوا في دين الله أفواجاً، فلم تمض سنتان حتى استوسقت جزيرة العرب إيماناً ولم يبق في سائر قبائل العرب إلاّ مظهر للإسلام ولله الحمد والمنة، وقد روى البخاري في «صحيحه» عن عمرو بن سلمة قال: لما كان الفتح بادر كل قوم بإسلامهم إلى رسول الله ﷺ وكانت الأحياء تتلوم بإسلامها فتح مكة يقولون: دعوه وقومه، فإن ظهر عليهم فهو نبي[2]، الحديث. وقال الإمام أحمد بسنده: حدثني جار لجابر بن عبد الله قال: قدمت من سفر فجاءني (جابر بن عبد الله) فسلم عليّ، فجعلت أحدثه عن افتراق الناس وما أحدثوا، فجعل جابر يبكي، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس دخلوا في دين الله أفواجاً، وسيخرجون منه أفواجاً»[3].

[آخر تفسير سورة النصر، ولله الحمد والمنة]

• • •

١١١ - سورة المسد

وآياتها خمس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾.

روى البخاري: عن ابن عباس أن النبي ﷺ خرج إلى البطحاء فصعد الجبل فنادى: «يا صباحاه» فاجتمعت إليه قريش، فقال: «أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أكنتم تصدقوني؟» قالوا: نعم، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»، فقال أبو لهب: ألهذا جمعتنا؟ تباً لك، فأنزل الله: ﴿تبت يدا أبي لهب وتب﴾ إلى آخرها[4]. وفي رواية: فقام ينفض يديه وهو يقول: تباً لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله: ﴿تبت يدا أبي لهب وتب﴾ الأول دعاء عليه، والثاني خبر عنه، فأبو لهب هذا هو أحد أعمام رسول الله ﷺ، واسمه (عبد العزى بن عبد المطلب) وكان كثير الأذية لرسول الله ﷺ والبغض له، والتنقص له ولدينه، روى الإمام أحمد عن أبي الزناد قال: أخبرني رجل يقال له (ربيعة بن عباد) من بني الديل وكان جاهلياً فأسلم قال: رأيت النبي ﷺ في الجاهلية في سوق ذي المجاز وهو يقول: «يا أيها الناس قولوا لا إله إلاّ الله تفلحوا» والناس مجتمعون عليه، ووراءه رجل وضيء الوجه، أحول ذو غديرتين، يقول: إنه صابىء كاذب، يتبعه حيث ذهب، فسألت عنه، فقالوا: هذا عمه أبو لهب[5]. وقال محمد بن إسحاق: عن ربيعة بن عباد: إني لمع أبي رجل شاب أنظر إلى رسول الله ﷺ يتبع القبائل، ووراءه رجل أحول وضيء الوجه ذو جمة، يقف رسول الله ﷺ على القبيلة فيقول: «يا بني فلان إني رسول الله إليكم آمركم أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئاً، وأن تصدقوني وتمنعوني حتى أنفذ عن الله ما بعثني به»، وإذا فرغ من مقالته قال الآخر

---

(١) أخرجه أحمد ورواه مسلم بنحوه.
(٢) أخرجه البخاري.
(٣) أخرجه الإمام أحمد.
(٤) أخرجه البخاري.
(٥) أخرجه أحمد.

من خلفه: يا بني فلان هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى وحلفاءكم من الجن إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تسمعوا له، ولا تتبعوه، فقلت لأبي: من هذا؟ قال عمه أبو لهب [١]. فقوله تعالى: ﴿تبت يدا أبي لهب﴾ أي خسرت وخابت وضل عمله وسعيه، ﴿وتبّ﴾ أي وقد تبّ تحقق خسارته وهلاكه.

وقوله تعالى: ﴿ما أغنى عنه ماله وما كسب﴾ قال ابن عباس: ﴿وما كسب﴾ يعني ولده، يروى أن رسول الله ﷺ لما دعا قومه إلى الإيمان قال أبو لهب: إن كان ما يقول ابن أخي حقاً فإني أفتدي نفسي يوم القيامة من العذاب بمالي وولدي، فأنزل الله تعالى: ﴿ما أغنى عنه ماله وما كسب﴾. وقوله تعالى: ﴿سيصلى ناراً ذات لهب﴾ أي ذات شرر ولهب وإحراق شديد، ﴿وامرأته حمالة الحطب﴾ وكانت زوجته من سادات نساء قريش، وهي (أم جميل) واسمها (أروى بنت حرب بن أمية) وهي أخت أبي سفيان، وكانت عوناً لزوجها على كفره وجحوده وعناده، فلهذا تكون يوم القيامة عوناً عليه في عذابه في نار جهنم، ولهذا قال تعالى: ﴿حمالة الحطب * في جيدها حبل من مسد﴾ يعني تحمل الحطب فتلقي على زوجها ليزداد على ما هو فيه، هي مهيأة لذلك مستعدة له، ﴿في جيدها حبل من مسد﴾ قال مجاهد: من مسد النار، وعن مجاهد وعكرمة، ﴿حمالة الحطب﴾ كانت تمشي بالنميمة [٢]. وقال ابن عباس والضحاك: كانت تضع الشوك في طريق رسول الله ﷺ، وقال سعيد بن المسيب: كانت لها قلادة فاخرة، فقالت: لأنفقنها في عداوة محمد، فأعقبها الله منها حبلاً في جيدها من مسد النار، والمسد الليف، وقيل: هو قلادة من نار طولها سبعون ذراعاً، قال الجوهري: المسد الليف، والمسد أيضاً حبل من ليف أو خوص، وقال مجاهد: ﴿حبل من مسد﴾ أي طوق من حديد، أخرج ابن أبي حاتم عن أسماء بنت أبي بكر قالت: لمّا نزلت: ﴿تبت يدا أبي لهب﴾ أقبلت العوراء (أم جميل) بنت حرب ولها ولولة وفي يدها فهر وهي تقول:

مذمّماً أبَيْنا ـ ودينه قلَيْنا ـ وأمره عصينا

ورسول الله ﷺ جالس في المسجد ومعه أبو بكر، فلما رآها أبو بكر قال: يا رسول الله قد أقبلت وأنا أخاف عليك أن تراك، فقال رسول الله ﷺ: «إنها لن تراني»، وقرأ قرآناً اعتصم به، كما قال تعالى: ﴿وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً﴾، فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر، ولم تر رسول الله ﷺ، فقالت: يا أبا بكر إني أخبرت أن صاحبك هجاني، قال: لا ورب هذا البيت ما هجاك، فولّت وهي تقول: قد علمت قريش أني ابنة سيدها، قال: فمثرت أم جميل في مرطها وهي تطوف بالبيت، فقالت: تعس مذمم [٣]. وقد قال بعض أهل العلم في قوله تعالى: ﴿في جيدها حبل من مسد﴾ أي في عنقها حبل من نار جهنم ترفع به إلى شفيرها، ثم ترمى إلى أسفلها، ثم لا تزال كذلك دائماً.

قال العلماء: وفي هذه السورة معجزة ظاهرة ودليل واضح على النبوّة، فإنه منذ نزل قوله تعالى: ﴿سيصلى ناراً ذات لهب * وامرأته حمالة الحطب * في جيدها حبل من مسد﴾ فأخبر عنهما بالشقاء وعدم الإيمان لم يقيض لهما أن يؤمنا ولا واحد منهما لا باطناً لا ظاهراً، ولا سراً ولا علناً، فكان هذا من أقوى الأدلة الباهرة على النبوّة الظاهرة.

[آخر تفسير سورة المسد، ولله الحمد والمنة]

• • •

(١) أخرجه أحمد والطبراني.
(٢) واختاره ابن جرير.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم.

١١٢ - سورة الإخلاص

مكية وآياتها أربع

(ذكر سبب نزولها وفضلها)

عن أُبيّ بن كعب أن المشركين قالوا للنبي ﷺ يا محمد انسب لنا ربك، فأنزل الله تعالى: ﴿قل هو الله أحدٌ * الله الصمدُ * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحدٌ﴾[١]، زاد ابن جرير والترمذي، قال: ﴿الصمد﴾ الذي لم يلد ولم يولد لأنه ليس شيء يولد إلاّ سيموت، وليس شيء يموت إلاّ سيورث، وإن الله عزّ وجلّ لا يموت ولا يورث، ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾ ولم يكن له شبيه ولا عدل وليس كمثله شيء.

حديث آخر في فضلها: روى البخاري، عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ بعث رجلاً على سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم، فيختم بـ﴿قل هو الله أحد﴾، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ، فقال: «سلوه لأي شيء يصنع ذلك؟» فسألوه، فقال: لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها، فقال النبي ﷺ: «أخبروه أن الله تعالى يحبه»[٢].

حديث آخر: قال البخاري في كتاب الصلاة، عن أنس رضي الله عنه قال: كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء، فكان كلما افتتح سورة يقرأ بها لهم في الصلاة مما يقرأ به، افتتح بقل هو الله أحد حتى يفرغ منها ثم كان يقرأ سورة أخرى معها، وكان يصنع ذلك في كل ركعة، فكلمه أصحابه، فقالوا: إنك تفتتح بهذه السورة ثم لا ترى أنها تجزئك، حتى تقرأ بالأخرى، فإما أن تقرأ بها، وإما أن تدعها وتقرأ بأُخرى، فقال: ما أنا بتاركها، إن أحببتم أن أؤمكم بذلك فعلت، وإن كرهتم تركتكم، وكانوا يرون أنه من أفضلهم، وكرهوا أن يؤمهم غيره، فلما أتاهم النبي ﷺ أخبروه الخبر، فقال: «يا فلان، ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك، وما حملك على لزوم هذه السورة في كل ركعة؟» قال: إني أحبها، قال: «حبك إياها أدخلك الجنة»[٣].

حديث آخر: قال البخاري، عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة؟» فشق ذلك عليهم، وقالوا: أينا يطيق ذلك يا رسول الله؟ فقال: «الله الواحد الصمد ثلث القرآن»[٤].

حديث آخر: قال أحمد، عن أُبيّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ بقل هو الله أحد فكأنما قرأ بثلث القرآن»[٥].

حديث آخر: عن أبي الدرداء رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «أيعجز أحدكم أن يقرأ كل يوم ثلث القرآن؟» قالوا: نعم يا رسول الله نحن أضعف من ذلك وأعجز، قال: «فإن الله جزأ القرآن ثلاثة أجزاء، فقل هو الله أحد ثلث القرآن»[٦].

حديث آخر: عن عبد الله بن حبيب قال: أصابنا عطش وظلمة، فانتظرنا رسول الله ﷺ يصلي بنا فخرج فأخذ بيدي فقال: «قُلْ» فسكت، قال: «قُلْ»، قلت: ما أقول؟ قال: «قل هو الله أحد والمعوذتين حين

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي وابن جرير.
(٢) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد.
(٣) أخرجه البخاري في كتاب الصلاة.
(٤) أخرجه البخاري.
(٥) أخرجه أحمد.
(٦) رواه أحمد ومسلم والنسائي.

تمسي، وحين تصبح ثلاثاً. تكفيك كل يوم مرتين»[١].

حديث آخر: عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ قُل هو الله أحد حتى يختمها عشر مرات بنى الله له قصراً في الجنة»، فقال عمر: إذاً نستكثر يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «الله أكثر وأطيب»[٢].

حديث آخر، في فضلها مع المعوذتين: عن عقبة بن عامر قال: لقيت رسول الله ﷺ، فابتدأته، فأخذت بيده، فقلت: يا رسول الله بم نجاة المؤمن؟ قال: «يا عقبة أخرس لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك» قال: ثم لقيني رسول الله ﷺ فابتدأني، فأخذ بيدي فقال: «يا عقبة بن عامر ألا أعلمك خير ثلاث سور أنزلت في التوراة والإنجيل والزبور والقرآن العظيم؟» قال: قلت: بلى، جعلني الله فداك، قال: فأقرأني: ﴿قل هو الله أحد﴾ و ﴿قل أعوذ برب الفلق﴾ و ﴿قل أعوذ برب الناس﴾، ثم قال: «يا عقبة لا تنسهن ولا تبت ليلة حتى تقرأهن» قال: فما نسيتهن منذ قال لا تنسهن، وما بت ليلة قط حتى أقرأهن، قال عقبة: ثم لقيت رسول الله ﷺ فابتدأته، فأخذت بيده، فقلت: يا رسول الله أخبرني بفواضل الأعمال فقال: «يا عقبة صل من قطعك، وأعط من حرمك، وأعرض عمن ظلمك»[٣].

حديث آخر في الاستشفاء بهن: قال البخاري، عن عائشة، أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه، ثم نفث فيهما، وقرأ فيهما: ﴿قل هو الله أحد﴾ و﴿قل أعوذ برب الفلق﴾ و﴿قل أعوذ برب الناس﴾ ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما على رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات[٤].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾.

قال عكرمة: لما قالت اليهود: نحن نعبد عزير ابن الله، وقالت النصارى: نحن نعبد المسيح ابن الله، وقالت المجوس: نحن نعبد الشمس والقمر، وقالت المشركون: نحن نعبد الأوثان أنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿قل هو الله أحد﴾ يعني هو الواحد الأحد، الذي لا نظير له ولا وزير، ولا شبيه ولا عديل، لأنه الكامل في جميع صفاته وأفعاله، وقوله تعالى: ﴿الله الصمد﴾ يعني الذي يصمد إليه الخلائق في حوائجهم ومسائلهم، قال ابن عباس: هو السيد الذي قد كمل في سؤدده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والعليم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد، وهو الله سبحانه، ليس له كفء وليس كمثله شيء، سبحان الله الواحد القهار، وقال الأعمش ﴿الصمد﴾ السيد الذي قد انتهى سؤدده، وقال الحسن وقتادة: هو الباقي بعد خلقه، وقال الحسن أيضاً ﴿الصمد﴾ الحي القيوم الذي لا زوال له، وقال الربيع بن أنس: هو الذي لم يلد ولم يولد كأنه جعل ما بعده تفسيراً له، وهو قوله: ﴿لم يلد ولم يولد﴾ وهو تفسير جيد، وقال ابن مسعود والضحاك والسدي: ﴿الصمد﴾ الذي لا جوف له، وقال مجاهد

(١) رواه أبو داود والترمذي والنسائي.
(٢) رواه أحمد والدارمي.
(٣) رواه أحمد والترمذي.
(٤) أخرجه البخاري وأهل السنن.

﴿الصمد﴾ المصمت الذي لا جوف له، وقال الشعبي: هو الذي لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب. وقد قال الحافظ أبو القاسم الطبراني في «كتاب السنة» بعد إيراده كثيراً من هذه الأقوال في تفسير الصمد: وكل هذه صحيحة وهي صفات ربنا عزَّ وجلَّ، هو الذي يصمد إليه في الحوائج، وهو الذي قد انتهى سؤدده، وهو الصمد الذي لا جوف له ولا يأكل ولا يشرب، وهو الباقي بعد خلقه، وقال البيهقي نحو ذلك، وقوله تعالى: ﴿لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد﴾ أي ليس له ولد ولا والد ولا صاحبة، قال مجاهد: ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾ يعني لا صاحبة له، وهذا كما قال تعالى: ﴿بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء﴾ أي هو مالك كل شيء وخالقه، فكيف يكون له من خلقه نظير يساميه، أو قريب يدانيه؟ تعالى وتقدس وتنزه، قال تعالى: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إدّاً﴾، وقال تعالى: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون﴾، وفي «صحيح البخاري»: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم»[1]. وفي الحديث القدسي: «كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليَّ من إعادته. وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولداً، وأنا الأحد الصمد لم أَلِد ولم أولد ولم يكن لي كفواً أحد»[2].

[آخر تفسير سورة الإخلاص، ولله الحمد والمنة]

• • •

١١٣ - سورة الفلق

مكية وآياتها خمس

عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة لم ير مثلهن قط: ﴿قل أعوذ برب الفلق﴾ و﴿قل أعوذ برب الناس﴾»[3]. وروى الإمام أحمد، عن عقبة بن عامر قال: بينا أنا أقود برسول الله ﷺ في نقب من تلك النقاب إذ قال لي: «يا عقبة ألا تركب؟»، قال: فأشفقت أن تكون معصية، قال: فنزل رسول الله ﷺ، وركبت هنية، ثم ركب، ثم قال: «يا عقبة، ألا أعلمك سورتين من خير سورتين قرأ بهما الناس؟» قلت: بلى يا رسول الله، فأقرأني: ﴿قل أعوذ برب الفلق﴾ و﴿قل أعوذ برب الناس﴾، ثم أقيمت الصلاة فتقدم رسول الله ﷺ فقرأ بهما، ثم مر بي، فقال: «كيف رأيت يا عقبة، اقرأ بهما كلما نمت وكلما قمت»[4].

وتقدم حديث عائشة أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بهن وينفث في كفيه ويمسح بهما رأسه ووجهه وما أقبل من جسده، وروى الإمام مالك، عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذتين، وينفث، فلما اشتد وجعه كنت اقرأ عليه بالمعوذات، وأمسح بيده عليه رجاء بركتها[5]. وعن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ كان يتعوذ من أعين الجان وأعين الإنسان فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما وترك ما سواهما[6].

---

(١) أخرجه البخاري.
(٢) أخرجه البخاري أيضاً.
(٣) أخرجه مسلم والترمذي والنسائي.
(٤) أخرجه أحمد وأبو داود والنسائي.
(٥) أخرجه مالك ورواه البخاري وأبو داود والنسائي.
(٦) أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجة، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾.

قال ابن عباس ﴿الفلق﴾: الصبح، وقال ابن جرير: وهي كقوله تعالى: ﴿فالق الإصباح﴾، وقال ابن عباس: ﴿الفلق﴾ الخلق، أمر الله نبيّه أن يتعوذ من الخلق كله، وقال كعب الأحبار: ﴿الفلق﴾ بيت في جهنم، إذا فتح صاح جميع أهل النار من شدة حره، قال ابن جرير: والصواب القول أنه فلق الصبح، وهذا هو الصحيح، وهو اختيار البخاري رحمه الله تعالى، ﴿من شر ما خلق﴾ أي من شر جميع المخلوقات، قال الحسن البصري: جهنم وإبليس وذريته مما خلق، ﴿ومن شر غاسق إذا وقب﴾ قال مجاهد ﴿غاسق﴾ الليل ﴿إذا وقب﴾ غروب الشمس[1]، وقال الحسن وقتادة: إنه الليل إذا أقبل بظلامه، وقال الزهري: الشمس إذا غربت، وعن عطية وقتادة: ﴿إذا وقب﴾ الليل إذا ذهب، وقال أبو هريرة ﴿ومن شر غاسق إذا وقب﴾ الكوكب، قال ابن جرير: وقال آخرون: هو القمر، قالت عائشة رضي الله عنها: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فأراني القمر حين طلع، وقال: «تعوذي بالله من شر هذا الغاسق إذا وقب»[2]، ولفظ النسائي: «تعوذي بالله من شر هذا، هذا الغاسق إذا وقب»، قال الأولون: هذا لا ينافي قولنا، لأن القمر آية الليل، ولا يوجد له سلطان إلاّ فيه، وكذلك النجوم لا تضيء إلاّ بالليل، فهو يرجع إلى ما قلناه، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ومن شر النفاثات في العقد﴾ قال مجاهد وعكرمة: يعني السواحر، قال مجاهد: إذا رقين ونفثن في العقد، وفي الحديث: أن جبريل جاء إلى النبي ﷺ فقال اشتكيت يا محمد؟ فقال: «نعم»، فقال: باسم الله أرقيك، من كل داء يؤذيك، ومن شر كل حاسد وعين، الله يشفيك. ولعل هذا كان من شكواه ﷺ حين سحر، ثم عافاه الله تعالى وشفاه، ورد كيد السحرة الحساد من اليهود في رؤوسهم وجعل تدميرهم في تدبيرهم.

روى البخاري في كتاب الطب من «صحيحه»، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ سحر، حتى كان يرى أنه يأتي النساء، ولا يأتيهن. قال سفيان: وهذا أشد ما يكون من السحر إذا كان كذا فقال: «يا عائشة أعلمت أن الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه؟ أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجليّ، فقال الذي عند رأسي للآخر: ما بال الرجل؟ قال: مطبوب، قال: ومن طبه؟ قال: (لبيد بن أعصم) رجل من بني زريق حليف اليهود كان منافقاً، قال: وفيم؟ قال: في مشط ومشاطة، قال: وأين؟ قال: في جف طلعة ذكر، تحت راعوفة في بئر ذروان»، قالت: فأتى البئر حتى استخرجه، فقال: «هذه بئر التي أريتها وكأن ماءها نقاعة الحناء وكأن نخلها رؤوس الشياطين»، قال: فاستخرج، فقلت: أفلا تنشرت؟ فقال: «أما الله فقد شفاني، وأكره أن أثير على أحد من الناس شراً»[3]. وروى الثعلبي في «تفسيره»، قال ابن عباس وعائشة رضي الله عنهما: كان غلام من اليهود يخدم رسول الله ﷺ. فدبت إليه اليهود. فلم يزالوا به حتى أخذ مشاطة رأس النبي ﷺ، وعدة من أسنان مشطه، فأعطاها اليهود فسحروه فيها، وكان الذي تولى ذلك رجل منهم يقال له (ابن أعصم) ثم دسها في بئر لبني زريق، يقال له ذروان، فمرض رسول الله ﷺ، وانتثر شعر رأسه ولبث ستة

(١) حكاه البخاري عنه وهو قول ابن عباس والضحاك.
(٢) أخرجه أحمد والترمذي والنسائي، وقال الترمذي: حسن صحيح.
(٣) أخرجه البخاري ورواه مسلم وأحمد بمثله.

أشهر يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن، وجعل يذوب، ولا يدري ما عراه، فبينما هو نائم إذ أتاه ملكان فجلس أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه، فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه: ما بال الرجل؟ قال: طبٌّ، قال: وما طبه؟ قال: سحر، قال: ومن سحره؟ قال: لبيد بن الأعصم اليهودي، قال: وبم طبه؟ قال: بمشط ومشاطة، قال: وأين هو؟ قال: في جف طلعة ذكر تحت راعوفة في بئر ذروان، والجف قشر الطلع، والراعوفة حجر في أسفل البئر ناتئ يقوم عليه الماتح، فاتته رسول الله ﷺ: مذعوراً، وقال: «يا عائشة أما شعرت أن الله أخبرني بدائي»، ثم بعث رسول الله ﷺ علياً والزبير وعمار بن ياسر، فنزحوا ماء البئر، كأنه نقاعة الحناء، ثم رفعوا الصخرة، وأخرجوا الجف، فإذا فيه مشاطة رأسه وأسنان من مشطه، وإذا فيه وتر معقود فيه اثنا عشر عقدة مغروزة بالإبر، فأنزل الله تعالى السورتين، فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة، ووجد رسول الله ﷺ خفة حين انحلت العقدة الأخيرة، فقام كأنما نشط من عقال: وجعل جبريل عليه السلام يقول: باسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من حاسد وعين، الله يشفيك، فقالوا: يا رسول الله أفلا نأخذ الخبيث نقتله؟ فقال رسول الله ﷺ: «أما أنا فقد شفاني الله، وأكره أن أثير على الناس شراً»[1].

[آخر تفسير سورة الفلق، ولله الحمد والمنة]

• • •

١١٤ ـ سورة الناس

مكية وآياتها ست

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ النَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝٥ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۝٦﴾.

هذه ثلاث صفات من صفات الرب عزّ وجلّ: (الربوبية) و(الملك) و(الإلهية)، فهو رب كل شيء ومليكه وإلهه، فجميع الأشياء مخلوقة له مملوكة، فأمر المستعيذ أن يتعوذ بالمتصف بهذه الصفات ﴿من شر الوسواس الخناس﴾ وهو الشيطان الموكل بالإنسان فإنه ما من أحد من بني آدم إلاّ وله قرين يزيّن له الفواحش، ولا يألوه جهداً في الخبال، والمعصوم من عصمه الله، وقد ثبت في الصحيح: «ما منكم من أحد إلاّ وقد وكل به قرينه» قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: «نعم إلاّ أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلاّ بخير». وثبت في الصحيحين «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً ـ أو قال ـ شراً»[2]. وروى الحافظ أبو يعلى الموصلي، عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم، فإن ذكر الله خنس، وإن نسي التقم قلبه، فذلك الوسواس

---

(١) قال ابن كثير: هكذا أورده الثعلبي بدون إسناد وفيه غرابة، وفي بعضه نكارة شديدة، ولبعضه شواهد مما تقدم.

(٢) أخرجه الشيخان في قصة زيارة صفية للنبي ﷺ وهو معتكف فلقيه رجلان فقال: «على رسلكما إنها صفية» الحديث.

الخناس»[١]. وفيه دلالة على أن القلب متى ذكر الله تصاغر الشيطان وغلب، وإن لم يذكر الله تعاظم وغلب، قال ابن عباس في قوله: ﴿الوسواس الخناس﴾ قال: الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وسوس، فإذا ذكر الله خنس.

وقوله تعالى: ﴿الذي يوسوس في صدور الناس﴾ هل يختص هذا ببني آدم كما هو الظاهر، أو يعم بني آدم والجن؟ فيه قولان، ويكونون قد دخلوا في لفظ الناس تغليباً، وقوله: ﴿من الجنة والناس﴾ هل هو تفصيل لقوله: ﴿الذي يوسوس في صدور الناس﴾ ثم بيّنهم فقال: ﴿من الجنة والناس﴾ وهذا يقوي القول الثاني، وقيل قوله: ﴿من الجنة والناس﴾ تفسير للذي يوسوس في صدور الناس من شياطين الإنس والجن كما قال تعالى: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً﴾، وكما قال الإمام أحمد عن أبي ذر قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو في المسجد فجلست فقال: «يا أبا ذر هل صليت؟» قلت: لا، قال: «قم فصل» قال: فقمت فصليت، ثم جلست فقال: «يا أبا ذر تعوذ بالله من شر شياطين الإنس والجن»، قال: فقلت: يا رسول الله وللإنس شياطين؟ قال: «نعم»[٢]، وروى الإمام أحمد، عن ابن عباس قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني لأحدث نفسي بالشيء، لأن أخر من السماء أحب إليّ من أن أتكلم به، قال: فقال النبي ﷺ: «الله أكبر، الله أكبر، الحمد لله الذي ردّ كيده إلى الوسوسة»[٣].

[آخر التفسير وقد تم والحمد لله رب العالمين]

---

(١) أخرجه الحافظ الموصلي.

(٢) أخرجه الإمام أحمد وابن ماجة بلفظ أطول.

(٣) أخرجه أحمد وأبو داود والنسائي.